# المختفي

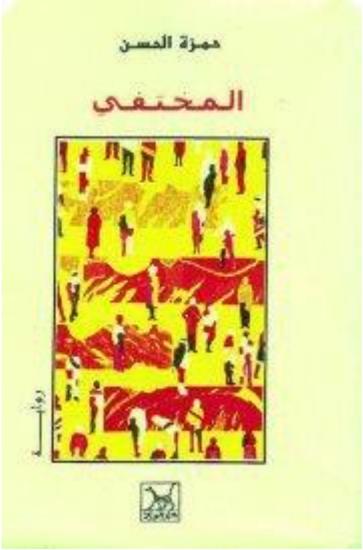

# رواية المختفي:

# بين الأدب والتوثيق

نُشرت رواية "المختفي" عام 2000 بطبعة محدودة جداً في اسبانيا بعد تعذر الحصول على دار نشر لأن ظاهرة الاختفاء السياسي ظاهرة عربية قومية، ولم يتحدث عن الرواية سوى كاتب واحد بإسم مستعار ـ ينطبق عليه وصف: الناقد المختفي ـ واصفاً الرواية بأنها نص يبحث عن هوية وتتعرض إلى ظاهرة الاختفاء السياسي الخرافية كما يقول كما لو أن كل تلك الجموع الهائلة من المختفين صعقتهم الكهرباء أو تاهوا في صحراء سياحية، كما أن حلم أي كاتب أن يكتب نصاً يبحث

عن هوية لأن هوية النص تتحدد من داخله وليست من شروط مسبقة، ولم يكن غرض هذا الكاتب نقدياً كما هو واضح.

لم أقرأ هذه الرواية في طبعتها تلك إلا بعد مرور ثلاث عشرة سنة على نشرها، أي عام **2013** عندما كنت أعدها لطبعة ثانية منقحة بعد أن كُتبت الأولى في ظروف خاصة صعبة جداً، وبعد رحلة عبور على الاقدام لثلاثة حدود وسجون آسيوية في كل من العراق وايران والباكستان ومشاكل التكيف مع مناخ اسكندنافي قطبي جليدي جديد.

لكني فوجئت، حقاً، بما قرأت: إن هذه الرواية وهي تتعرض لفترة قاسية من تاريخ العراق وعن ظاهرة الاختفاء السياسي تحديداً، لكنها تختزن كل الوقائع والكوارث والأحداث التي حدثت بعد الاحتلال عام **2003**.

هذه الرواية في عبارات صريحة وفي صفحات مختلفة كثيرة كانت تتحدث عن الحرب "الأهلية الصامتة والقادمة" بلغة

عارية مكشوفة وعن مجتمع يتشظى وينقسم ويغطس في السرية والكبت في انتظار فرصة سانحة للإنتقام.

كان هذا الخطر ماثلاً على امتداد النص وهو خطر نزول المجتمع إلى الأوكار والقيعان النفسية العميقة من الرعب والبطش الأرعن، ولم يكن ينتظر سوى رفع الغطاء عن المرجل لكي تظهر كل المكبوتات والممنوعات والرغبات المتعفنة في الأوكار النفسية الداخلية، لذلك لا معنى لدهشة المثقف أو الكاتب بعد الاحتلال من كل الخراب الذي بدا له طارئاً وغريباً وغير متوقع، لأن المثقف نفسه لم يكن يعيش في وطن لكي يعرف المستقبل بل كان يعيش في نصوص حزبية أو أدبية مبتورة عن أوطان أخرى ومواقف أخرى مختلفة.

لكي تحافظ الطبعة الجديدة على حيويتها وصدقها وطابع التوقع المسبق، وهذه وظيفة الأدب في الاستشراف والتوقع وليس في النقل الحرفي، تُركت كما هي عدا بعض التعديلات

الطفيفة لجمل مترهلة أو مرتبكة واضافات غير جوهرية لا تتحكم بمسار النص الأصلي وحذف بعض العبارات التي بدت حشواً واستبدالها باخرى لا تخرج عن السياق، وتصحيح الأخطاء اللغوية المطبعية، مع تشفير وترميز بعض الأسماء الحقيقية. ألم يقم أمبرتو إيكو بتعديل وتنقيح وتبسيط روايته الشهيرة" اسم الوردة"؟.

هذه الرواية عن الاختفاء السياسي كُتبت في زمن دفن الرؤوس وتحاشي الكلام عن تلك الآلة الأمنية الباطشة والوحشية، ويوم كنا نقف، علناً، بالاسماء الحقيقية أمام نظام وحشي معرضين عوائلنا لكل أنواع الرعب والمصير المجهول، في حين كان هناك من يختبيء في الظلام، كما اليوم، ويطلق علينا أبواق الضجيج، لكي تضيع المواقف ولا أحد يسمع أحداً.

من الغريب أن هذا الصنف يخرج في نهاية المعركة من العتمة، وهو يحمل مسدسين ويطلق النار في الهواء ليخطف نتائج تلك

الحرب المشرفة ، حرب المثقف والكاتب والروائي التي لا تنتهي أبداً.

المحزن أن أحداً من الذين ذكروا بالأسماء الحقيقية في هذه الرواية من المختفين، من النساء والرجال، لم يُعثر عليه بعد سيطرة الناس على السجون العلنية والسرية والأقبية، لكن الأكثر حزناً هو كون ظاهرة الاختفاء السياسي عادت، ثانية، للظهور، هذه المرة، بقوة أكبر، كما لو أننا نعيش في زمن واحد بلا قطيعة مع الماضي المستمر، وهذا هو ما توقعته رواية "المختفي" ببساطة طفل يرى عري الإمبراطور.

* حمزة الحسن

* النرويج ،كانون الأول،

2013.

# 1

**حدث هذ في فجر يوم صيفي.**

**فجر يشبه أي فجر آخر لو لا تلك الصرخة الوحشية التي اندلعت،فجأة، كصرخة مباغتة لحيوان جريح، ولو لا تلك الصرخة التي أعطت الفجر هوية مغايرة، لكان كل شيء على حاله مثل أي فجر قديم يطل على هذه المدينة الراقدة على ضفة النهر منذ أول يوم طلعت فيه الشمس على الأرض.**

**تلك الصرخة الحادة البهيمية، تحت تلك السماء الرصاصية، والرائحة الحريفية التي هي خليط من التراب والفجر والضفاف، بدلت كثيراً من طبيعة ذلك النهار وغيرت مصير الشارع لوقت غير قصير وربما إلى أمد طويل.**

كانت السيدة فاطمة نائمة عندما سمعت طرقاً خفيفاً على الباب وهو أمر لا يحدث كثيراً في تلك الظروف، أو انه لم يحدث منذ سنوات، على الرغم من انها تعيش في عزلة مع طفلتها الوحيدة زهور بعد أن إختفى الأب جبر الكاطع، فجأة، منذ تسع سنوات وتركها حاملاً في شهرها الخامس.

نهضت من الفراش، ضجرةً، من تزايد الطرق على الباب وتصاعد حدته كما لو أن الشخص القادم قد سئم من هذا الإنتظار الممل. عندما فتحت الباب وهي تعدل هيئتها وتغالب نعاسها وبرد الفجر الصيفي، شهقت، مصعوقةً، من هول المشهد الذي بدا لها أحد أفظع الكوابيس التي بدأت تنتابها في الليالي الأخيرة وأشدها شراسة وضراوة.

كان التابوت، مرمياً، أمام الباب، مسمراً، طويلاً، حتى تصورته بحجم الشارع، وحينئذٍ فقط تجمد الزمن عند تلك اللحظة المشؤومة ورأت كل سنوات حياتها عاريةً كالفضيحة في

هذا الفجر الرصاصي الأعزل. لم تسمع إلا كلمة واحدة نطق بها كائن خرافي :

ـ زوجك.

صرخت بكل ما فيها من حريق ولوعة وذعر، تلك الصرخة التي سمعها سكان الشارِع والشوارِع الأخرى كخوار حيوان ذبيح طعن فجأة.

كانت زهور قد إستيقظت، هلعةً، وهرولت نحو الباب، وكانت الصرخة ماتزال تدوي في كل مكان كنداء أخير للرعب المكبوت، المعتق، المنفي، المخبوء، وعندما تساءلت الطفلة عن سر هذا التابوت، صرخت الأم مرة أخرى وهي تهز زهور الذاهلة:

ـ أبوك يا زهور.

كانت زهور حائرة بين أمها والتابوت والأقدام السوداء الكثيرة الملتفة حوله. أقدام الرجال الغرباء الذين حملوا التابوت ولم تكن زهور قد رأت وجه أحدهم من قبل، وظهروا كما لو أنهم بلا رؤوس أو وجوه. كانوا اقداماً متنقلةً. سمعت مع ذلك صوتاً بارداً يصدر أمراً إلى شخص ما ربما أمها يقول بكلمات موجزة وقاطعة كأوامر صادرة من سلطة عليا:

ـ ممنوعِ فتح التابوت. ممنوعِ إقامة فاتحة. هل هذا واضح؟

لكن فاطمة كانت في مكان آخر بعيد. كانت في عيد صيفي قديم من الأعياد المقدسة. عيد بعيد لكن أجراسه ترن في الذاكرة هذه اللحظة كأنه عيد البارحة. شمت على نحو عجيب رائحة عطرة لذلك اليوم المتلاشي أو الذي اعتقدت أنه تلاشى حتى هذه اللحظة المجنونة.

رأت جبر الكاطع يلاحقها عبر الأراجيح الملونة الحبال. شمت حتى رائحة الحبال ذلك اليوم ورأت سرباً من الطيور يحوم حول تلك الأمكنة الزاهية. ضجة عصافير الشارع. خوفها الغريزي من الناس والأصوات وتلك السماء الزرقاء التي تشبه طائرة ورقية صغيرة.

ـ هل هذا واضح؟ تكرر الصوت الآمر.

طوال تسع سنوات وهي تسأل عنه بلا جواب. الآن جاء الجواب على شكل تابوت. ما معنى السؤال والجواب؟ ما معنى الفجر والصيف والوقت والأراجيح والإنتظار؟ عاد قلب الأنثى المجروح، قلب بهيمة باغتها المطر، الموت، الدم، الشهوة، إلى الصراخ:

ـ هذا أبوك يا زهور.

كانت الطفلة حائرةً بين الصرخة والحشرجة والتابوت والرعب وصـدمة اللقـاء الأول والأخـير مـع الأب الغائـب، المختفـي. سنوات وأمها تحدثها عبر مواقد الشتاء الطويلة المثقلة بالإنتظار والترقـب بحيـث ان طرقـة بـاب في الليـل أو مـرور ريـح أو ورقـة عـابرة توقـف تسلسـل الـزمن، عـن الأب المختفـي في مكـان مـا، فوق أو تحت الأرض.

كيف تستطيع الآن أن تفهم كل ما يدور؟ هل هذه الخشبة هي كل ما انتظرته كل تلك الليالي العميقة بالأمل والرجاء؟ هل هذا هـو حقـا الأب جـبر الكـاطع الـذي كانـت تـراه في صـور الأم المخبـأة في أمـاكن سـرية في المنـزل؟ كانـت الأم تقـيم كلمـا هزهـا الشـوق أو الـذكرى أو هـاجس مـا، علاقـة محرمـة ومسـروقة بينهـا وبـين صـور زوجهـا الـذي لم يعـد زوجـاً بموجـب قـرار صـادر يحـرم عليها هذا الزواج.

كانت طقوس حفل اللقاء بينها وبين الصور تشبه طقوس علاقة جنسية محرمة بين امرأة متزوجة وعشيق متسلل: غلق الباب، الضوء، وكمختلسة تسحب الصور من الجدار المغطى بصورة كبيرة للرئيس الجنرال وهو يمسك بكل صلابة وقوة بكرسي ذهبي ضخم الحجم بشكل مثير. صورة شهيرة ملتقطة من قبل مصور "بابل" في الباب الشرقي.

كانت صورة الجنرال على الحائط تبدو كصورة حارس مقيم على تلك العلاقة المحرمة بينها وبين الزوج المختفي الذي لم يبق منه غير تلك الصور السرية.

كانت تقول لزهور الفرحة بتلك الصور التي صارت بديلاً عن ألعاب الطفولة والهدايا التي تحصل عليها من الأقارب في بعض المناسبات:

ـ هذا جبر.

كما لو انها تلقت هدية مبهرة في نهار عيد، تبدأ زهور بشم تلك الصور وسط تحذيرات الأم وخوفها من الإنكشاف.

تسأل زهور:

ـ متى يأتي؟

ترد الأم بجزعٍ:

ـ لا أدري.

ـ واين هو الآن؟

ـ لا أدري.

ـ لكن من يدري؟

قبل أن تصعد الصور إلى الجدار خلف صورة الكرسي الذهبي الضخم، يجري تجريدها من كل شيء، في غياب الطفلة زهور، في

عزلة تامة، مثل أي طقس متعة سرية، وبعد أن ينتهي كل شيء، تشعر فاطمة بمشاعر إثم غريبة وخوف لانها تقيم علاقة غير شرعية مع زوج لم يعد زوجاً بموجب قانون السلطة.

مرة ذهبت الى شيخ معمم في صومعته وسألته عن رأي الشرع في هذه العلاقة مع الزوج المختفي، سألها بدوره عن الرغبة والنار والقلق والشهوة واللوعة والسرير، فأجابته بكل صفاء وعفوية، لكنه أطفأ الضوء في الغرفة وشرع بتلاوة القرآن بخفوت وهمس لها في الظلام بصوت مبحوح وشعرت بانفاسه على رقبتها وكان هو يرى في الظلام لتعوده على هذه المشاهد.

قال لها، همساً، إنه يربطها الآن بزوجها المختفي وتستطيع أن تحتضنه بكل راحة ضمير بعد أن نجح في استحضاره من السجن أو المخبأ. قال إنه ذاهب الآن لكي لا تشعر بالخجل وشعرت به ينهض ويغادر الغرفة المظلمة بروائحها المختلطة.

- إقتربي.

ـ من أنت؟

ـ زوجك.

لم يكن لديها أدنى شك في أنه صوت الشيخ نفسه. بهدوء أنثى مجروحة في قلبها وشرفها، خلعت الحذاء وانهالت به من قلب الظلام والبخور والعطور على مصدر الهمس الراعش وغادرت المنزل دون أن تلتفت إلى الوراء.

ـ هل هذا واضح؟

كان العجوز ثجيل، الحارس الليلي المتقاعد، أول من وصل إلى المكان بعد الصرخة الوحشية التي هزت مشاعر الطمأنينة الكاذبة كتقنية بشرية لزراعة الأمل عن طريق الوهم.

ثلاثة شهود على قسوة هذا الفجر المباغت من ثلاثة أجيال يقفون الآن أمام مشهد واحد بدون قدرة على الكلام أو السؤال أو الاشارة أو التلميح. لم تعد هناك أية لغة أخرى عدا

الصرخة. زهور وفاطمة وثجيل، تلك اللحظة، لم يعودوا هم أنفسهم بعد اليوم. ثجيل الذي لم ينطق بكلمة واحدة كما لو أنه مصمم على الصمت، تحوّل إلى تمثال للدهشة

أقدار غريبة فرضت على ثجيل أن يكون شاهداً على إختفاء جبر الكاطع وعلى حضوره كتابوت لكنه لم يستطع في الحالتين أو ينطق بكلمة واحدة عن كل شيء شاهده أمامه، ومع أن أحداً لم يطلب منه ذلك صراحةً، لكن نظراتهم أوحت له بأكثر مما يريد أن يعرف كما لو أن صمت السلطة هو خطاب أيضاً، لأن الحارس المتقاعد والجندي الذي عاش فترة تأسيس الجيش في العشرينيات وعاصر الحروب والانقلابات وتبدل القوانين وصور الرؤساء وظهور المشانق وخشبات الإعدام والمظاهرات في الزمن الملكي ومراكز الشرطة والمعتقلات السرية، وظاهرة اختفاء الرجال والنساء، بلا عودة، إلا في حالات نادرة، ثجيل المثقل بهذه التجارب يعرف صمت السلطة جيداً، لذلك

شكلت(عودة) جبر الكاطع هذا الفجر،على شكل تابوت، حالة فريدة.

من أعماقه شعر بفرح خفي رغم هول المنظر هو الذي عاش كل تفاصيل الاختفاء وسنوات الإنتظار العصيبة المرهقة للأم والطفلة التي تقف،الآن، أمام التابوت كما لو أنها تقف أمام حكاية مفزعة أو كابوس له صلابة الواقع وشراسته.

فكر ثجيل، بين أشياء كثيرة، بأن هذه العودة قد تفتح طريق الأمل المقفل باحتمال عودة المختفين الباقين منذ سنوات، وقد تكون هذه الخطوة بعودة هؤلاء، جثثاً، تحولاً جديداً في سياسة النظام أو في الأقل من ناحية تسليم الجثث.

ـ هل هذا واضح؟

لم ترد ولم تسمع غير ان ثجيل الذاهل هو الذي أجاب  لأنه ليس من المعقول ألا يكون هناك من يجيب، وفي حضوره، على سؤال هؤلاء الذين يمتلكون القدرة على صناعة الأهوال، وقال بصوت جاف وصادق:

ـ واضح، يا سيدي.

رد صوت آمر:

ـ ما هو الواضح؟

ـ كل ما تقوله وستقوله يا سيدي.

ـ أنا كنت أتحدث مع فاطمة ولا أعرف هل سمعتني أم لا؟

كانت فاطمة قد نزلت، تواً، من الإرجوحة، وانطلقت، مسرورةً، إلى البيت وهي تشعر بعطر نهار العيد في كل مكان. عطر صيفي دوّار يدوّخ العصافير والصبايا والأزهار. فاجأها هذا الصوت المحتد هذه المرة:

ـ هل سنظل هنا الى ما لا نهاية؟

رد ثجيل، مسرعاً:

ـ لا، يا سيدي.

ـ أنا أتحدث مع فاطمة.

قال ثجيل بتهذيب وهدوء طارئ على تلك اللحظة المسعورة:

ـ لكن يا سيدي أنت تفهم جيداً الموقف. يمكنك أن تعيد عليّ كل ما تريده وسألتزم به.

قال الآخر بطريقة توحي للسامع انه رددها من قبل مرات:

ـ 1ممنوع فتح التابوت 2 ممنوع اقامة الفاتحة. هل هذا مفهوم؟

أجاب ثجيل، حالاً:

ـ مفهوم يا سيدي وأكثر. إذا لم يكن هذا مفهوماً، فما هو المفهوم؟

قال الآخر باللهجة الآمرة نفسها:

ـ سيبقى هذا الشخص معكم لحين الانتهاء من مراسم الدفن. تسليم الجثة هدية للعائلة.

ثم اضاف للزوجة المترجلة تواً من الإرجوحة القديمة:

ـ احمدي الله لأنهم سلموه لك. انت محظوظة.

رد ثجيل ، مؤيداً:

ـ هذا صحيح يا سيدي ولم يرجع شخص قبله.

واستدرك:

ـ لن ننسى لكم هذا الإحسان يا سيدي.

تحركت السيارة السوداء المضببة الزجاج، الطويلة، المعتمة من الداخل، بعد أن تركت رجل أمن في العشرينات من العمر مرافقاً للتابوت حتى الدفن.

ظل ثجيل يتذكر تلك الصرخة بعد مرور سنوات على ذلك الفجر الوحشي، على الرغم من أنه تظاهر بالقوة وحشد بقايا شجاعة مركبة تركيباً على جسد هرم، ذابل، إلا أنه شعر في أعمق أعماقه بشعور غريب من الذل لم يحس به  طوال حياته.

هذه هي المرة الأولى التي يجد نفسه فيها في موقف من هذا النوع دون أن يكون قادراً على الكلام أو على البكاء أو السؤال أو حتى الصمت في زمن يُحاسب فيه المرء على صمته وعلى كلامه.

كان حميد سائس الخيل العربنجي قد اعتاد على المرور في الشارع في هذه الساعة من الفجر وهو يجر عربته ويلعن كل من يمر أمامه أو يخطر بباله مع ان أحداً لا يعرف ماذا يدور في عقل وخيال هذا المشرد العريق في الطرقات الذي صار يدفع حماره الهزيل المريض ويجر العربة المخلعة بنفسه. تقبل الناس وجوده

في الشوارعِ مع أن أحداً لا يعرف من أين جاء، كأحد ظواهر الطبيعة، كالريح والمطر والغبار والظلام.

لكن حميد السائس عندما وصل، ذلك الفجر الغريب والاستثنائي، الوحشي، إلى مكان الحدث،وقف ، مصعوقاً، وهو يحاول أن يعرف حقيقة الموقف بلا جدوى، وقراءة الوجوه المرتبكة والمذعورة.

ترك العربة وهمس في إذن ثجيل:

ـ ماذا حدث؟

ـ عاد جبر الكاطع.

بحلق حميد في التابوت، متسائلاً:

ـ ما معنى عاد؟

رد ثجيل، غاضباً:

ـ عاد وكفى. كيف يعود الناس هذه الايام من الغياب؟

حاول حميد السائس أن يسأل ، في نوعٍ من التبلد والبلبلة، عما اذا عـاد حـاملاً تابوتـه أو محمـولاً فيـه، لكنـه خـرس أمـام حـزن أخضر حي من السيدة فاطمة وصدمة زهور. قال:

ـ إنا لله وإنا إليه قادمون. الفاتحة.

حدجه رجل الأمن الشاب بنظرة تحذير وكراهية وقال مخاطباً ثجيل المرتبك:

ـ نحن لم نتفق على هذا؟

ـ نعم، نعم، لم نتفق على قراءة الفاتحة، لنحمله إلى الداخل.

قال رجل الأمن:

ـ لنحمله الى المقبرة مباشرة.

قال حميد بصوت متوسل:

ـ دعه يقضي ليلته الأخيرة مع الأسرة.

ـ ممنوع.

تلك اللحظة انشق شيء ما، سماء، أو أرض، أو ثوب حديدي، أو صمت ثقيل. كانت فاطمة قد شقت ثوبها من الأعلى إلى الأسفل وانهارت محتضنة التابوت الذي انهمرت فوقه ظلال كثيرة مع الوقت: ظلال حيطان، بشر، ظلال خشب عتيق لصناديق مهملة تحت المطر مخصصة للتوابيت كما في قصة محمد خضير(التابوت)، ظلال أراجيح قديمة، ظلال أعياد مؤجلة، ظلال ريح شتوية، ظلال مواقد وحكايات منقرضة، ظلال غسق صيفي قادم من مدن محرومة من الفرح والنهار والنوم.

# 2

ذلك اليوم كان أبو عزيز الإسكافي قد عاد إلى غرفته في السوق، ماراً بشوارع البلدة، مخترقاً الحي القديم الذي تدور فيه أحداث غريبة هذا اليوم. بدا أنه غير معني بما يحدث أو لا يحدث ومثل باقي المخلوقات هنا، لا أحد يعرف من أين جاء، ومتى ولد؟ نبت في السوق كما تنبت الاقدار أو كما تنبت ورود وأعشاب البراري، كما تنزل الصاعقة أو تولد الحشرات، وصار من علامات السوق في كل الحقب والمحن والعواصف والأحوال.

كانت غرفته تقع في السوق في فرع الصفافير، ورغم كل الضجيج المتولد لكنه لم يشتك من شيء، لكن مع مزيج من الحنين والذكرى لعائلة مجهولة لا أحد يعرف عنها شيئاً، كما هو حال جاره في السكن مصطفى الترك الذي عمل سائقاً في البلدة مدة نصف قرن تقريباً بعد أن تخلف عن الجيش العثماني

المنسحب قبل انهيار الامبراطورية، وظهر في السوق كقط ليلي مجهول الهوية، قبل أن ينتقل الإثنان الى خان الشراوي.

مرّ أبو عزيز على غرفة مصطفى الترك الذي كان يقظاً تلك الساعة من الفجر، وكان في وسعهما الحديث قليلاً بقدر قليل من الحذر، لأن مرحلة الكهولة لا يعني لها الخطر الشيء الكثير خاصة الخطر السياسي الطارئ الذي لم يختبراه يوماً وقد يكون السبب عزوفهما عن السياسة والاخبار ونفورهما من كل ما هو سياسي وقد تجاوزا السبعين رغم تاريخ الولادة المجهول.

كان ضوء غرفة مصطفى الترك معتماً كضوء فانوس أو شمعة، وكانت ظلالهما على حيطان الغرفة تتحرك برخاوة وتبدو أشبه بعرض بطيء لفيلم صامت على حائط معتم. جلس أبو عزيز دون أن يتكلم كما لو أنهما فرغا من كل تلك الأحلام والأوهام والآمال خلال أكثر من نصف قرن. لم يعد ما يدعو للكلام أو الصمت. إنه وقت الإنتظار لغرباء مدى الحياة، لكن أبو عزيز

لأمر ما بدا مهتماً بقضية عودة جبر الكاطع بعد غيبة تسعة أعوام في الإختفاء. بعد أن سرد الحكاية بهدوء، كان الترك قد أظهر إهتماماً جديداً عليه هو الآخر. قال إنه يتذكر جيدا الكاطع قبل أن يختفي، لكنه قال بما يشبه الهمس إن هذه ليست الحالة الوحيدة التي تقع في البلدة في السنوات الأخيرة أو في الأقل بداية السبعينيات وحتى اليوم وذكر إن عوائل كثيرة تعاني من هذه المشكلة ولا أحد يجرؤ على الكلام، وهناك تسميات خاصة ملغزة لهذه المشكلة يسمعها من الذين يركبون معه في السيارة ويثقون به.

سمع مرة مثلاً من شخص منتصف الطريق وقد صارا وحدهما إن ولده (راح)، وعندما سأله: أين راح؟ أجاب الآخر: أخذوه بعد منتصف الليل منذ أربعة أعوام ولم يعد حتى اليوم. سألته: ألا تعرف مكانه؟ أجاب: مكانه؟ قالوا: لم يصل الى المكان المطلوب حتى اليوم وعندما يصل سنهتم بالأمر.

كان الاسكافي يصغي باهتمام واضح لكن مرور سرب من القطط في السوق الصامت، شتت تدفق الصور المتجمعة في ذهنه المنهك.

سأله الترك:

- لم تقل كيف عاد؟

- عاد جثة في تابوت.

كانت هذه العبارة عادية بالنسبة للترك الذي نقل نصف موتى وقتلى البلدة الى المقبرة الكبرى، مقبرة وادي السلام، لكنها الآن في مثل هذا العمر والمنفى والظرف والوحشة تشبه موسيقى جنائزية كتلك التي ترن في خياله الشارد دائماً ايام خدمته في الجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى، الحرب اللعينة التي قادته الى هذا المكان والبقاء هنا بعد الهرب من الانسحاب العسكري الكبير لإمبراطورية تتفسخ.

عوت الثعالب، كالعادة، من البساتين المجاورة، ونبحت كلاب السوق، كما لو ان هذا النباح يُسمع أول مرة، وشعر الترك برغبة في النعاس والتفكير والعزلة أكثر مما هو عليه. كل يوم أشبه ما يكون برحلة تحضير للسفر الأخير. في وسط عواء الثعالب ونباح الكلاب سمع الترك صاحبه يقول بصوت ضعيف منهك:

ـ سأخرج.

كانت ظلالهما على الجدران قد بدأت تتوارى كالأشباح.

# 3

تلك الأيام ظهر مسلسل تلفزيوني بعنوان(خرج ولم يعد) كان بمثابة ابتلاء آخر. صار الناس يستعملون هذا العنوان في كل المناسبات وبدونها واختلطت السخرية بالغموض، الضحك بالموت، الخيال بالجد.

عندما سُئلت جارتنا عن ابنها حمود الذرب الذي تأخر عن موعد عودته إلى المنزل ثلاث ساعات وكان قد ذهب إلى سوق الدجاج، قالت ساخرةً بفصحى طارئة:

ـ خرج ولم يعد.

حتى حميد السائس كان يرد على الأسئلة حول مصير حماره الذي نفق قبل ايام، قائلاً:

ـ خرج ولم يعد.

وبما ان كلمة(مختفي) صارت من الكلمات الممنوعة والمحرمة من الاستعمال، وبما أن الناس كانوا بحاجة إلى لغة للتواصل والتعبير عن مشاعرهم السرية المقموعة، ولو بلغة رمزية مشفرة، لذلك لجأوا الى حيلة لغوية بارعة لتجنب العقاب.

قبل المسلسل كان الحديث عن المختفين يتم التعبير عنه بمفردات محلية خاصة ملغزة مثل: عنكبوت، قارص، زنبور، لكن كل المفردات السرية تم كشفها على مراحل. حينما كان يجري السؤال عن شخص ما إختفى:

ـ اين صار فلان؟

يكون الجواب:

ـ عنكبوت أخذه.

أو:

ـ لدغه زنبور... ملدوغ.

يكون هذا الرد كافيا لتوضيح المعنى، لكن ذلك لم يدم طويلاً بعد الاستعمال المفرط لهذه الشفرات وانكشافها التي حُرّمت بتعليمات سرية عليا لكي تتجنب السلطة السخرية العامة.

قبل المسلسل، أصيب الناس بإبتلاء آخر هو مسلسل أردني بطله بطيحان كان يعرض كل مساء، واكتشف الجمهور تشابهاً عجيباً بين بطل المسلسل وبين الرئيس حتى إن ظهور الأخير كان يستدعي في الخيال العام تذكر بطيحان المعروف بالخبث والمكر والوحشية. صار بطيحان، في الذاكرة العامة، والخيال، رمزاً للموت والاختفاء والجفاف والغبار والبرد والعقم والكبت الجنسي وموت الاطفال والماشية.

عندما سأل شخص حميد السائس عن سبب عزوفه عن الزواج، أجاب، حالاً، كما لو أنه يبكي:

ـ بطيحان.

وعندما سُئلت زوجة الجار داود عن سبب تأخر الحمل، ردت بقسوة:

ـ اللعنة على بطيحان.

تأخر المطر في الريف، جفاف الأنهار، مشاكل الدورة الشهرية، كل ذلك بسبب بطيحان البطل الخرافي، بل ان المتشرد سيد هندي الذي تعتقد النساء أنه ولي صالح، ذكر اسم بطيحان في جادة الغنم وهو شارع قصير لبيع وشراء الأغنام تحول اسمه الى شارع الشعب.

اكتشف الأمن المحلي المعنى السري المشفر لعبارة (خرج ولم يعد) فأصدر تعميماً سرياً عن طريق المنظمات والمؤسسات والأفراد والمخبرين بالمنع الفوري لتداول هذا العنوان بدون وجود مبرر لذلك. كان أول ضحية لهذا العنوان المشؤوم هو

سائس الخيل الذي لم يبلّغه أحد بأمر المنع وظل يردده في كل مكان بل صار جواباً  لكل سؤال حتى عندما يُسأل عن أحوال الطقس والقلب والموت والنوم والصحة والمغص وسوق الحمير، يكون الجواب واحداً:

- خرج ولم يعد.

قُبض عليه بتهمة التشهير والشتم والسب العلني في الامكنة المفتوحة لرمز النظام وهي تهمة تقود الى المشنقة أو خشبة الاعدام أو في أحسن الأحوال يذهب ولن يعود أبداً، أو يصبح في ضيافة كلاب شرسة أو أرنباً للتجارب في المختبرات السرية وهو الشيء الوحيد الذي لا يتحمله السائس في الخيال والكوابيس.

لكنه أقسم بكل المقدسات ان خبر المنع لم يصله، وعندما سُئل عن السبب، أجاب:

ـ من يفكر بعربنجي.

ـ وهل كنت تعرف معنى خرج ولم يعد؟

ـ ابداً والله.

كان يردد طوال التحقيق إنه شخص تافه وصاحب عربة جوال وعديم القيمة ومن العيب أن تضع الدولة عقلها معه. سألوه عن عقوبة يقترحها بنفسه، فأجاب، متوسلاً، بأنه سيغلق فمه:

ـ أخيطه.

لكن أحدهم اقترح عليه أن يضاجع وصال، جميلة شارع ال 50 وإبنة صاحب الدكان الشيوعي هذا الاسبوع وأن يبصم على ذلك بتعهد وينقل لهم تفاصيل العملية بصورة دقيقة. كانت مثل هذه التعهدات الاجرامية تأخذ شكل القانون. قالوا له في منتهى الجدية:

ـ حريتك في فرج وصال.

بهذا التعهد خرج حميد السائس من السجن والموت لكن التطور الأهم هو ان مسلسل "خرج ولم يعد" توقف عن العرض قبل الأوان مما يعني ان المشكلة لم تعد محلية، ومع ذلك واصل الناس التعبير عن ظاهرة الاختفاء السياسي وغيرها بلغة جديدة مرمزة تحت ضغط السلطة.

انتشرت بعد أيام من نهاية المسلسل تعابير مشفرة جديدة ولغة مبهمة وكلمات لم تكن موجودة سابقاً. عندما سُئل ثجيل الحارس المتقاعد عما اذا كان قد رأى حقاً جبر الكاطع في التابوت، أجاب جاحظ العينين، هلعاً، من دون تفكير، كما لو انه يرد على سؤال آخر:

ـ ديك.

لا أحد يفهم هذا الجواب ولا ثجيل نفسه لكن أغرب جواب ظهر في تلك الأيام العجيبة هو جواب حميد السائس رداً على سؤال من إحدى عجائز الشارع عن سبب غيابه الغريب قبل ايام، قائلاً:

ـ من "دبرك نوفي الديان".

أسوأ من ذلك ساد في البلدة نوع جديد من خيال الاختفاء وثقافته ورموزه وطقوسه وخرافاته. هناك حكايات عن عودة جبر الكاطع بعد الدفن ذلك النهار، وفي الليلة نفسها،بل هناك من قال إنه شاهده يدخل المنزل بعد منتصف الليل، والأغرب من ذلك ان الأمن المحلي قام في اليوم التالي بمحاصرة المنزل وحبس الشاهد الوحيد والتحقيق معه بتهمة اخفاء معلومات تخص أمن الدولة، بل هناك من قال انهم حققوا مع الزوجة وزهور أيضاً حول الأمر في دائرة الأمن، ففي زمن الاضطراب يختفي الحد

**الفاصل بين الحقيقة والخيال ويصبح الواقع أكثر غرابةً من الخيال.**

**ليس هناك أي دليل واضح على هذه الحوادث ولا على غيرها في زمن السرديات المرتجلة غير الموثقة، كما أن أحداً غير قادر على السؤال ولا على الجواب، وصار الواقع سحراً، وتحول السحر الى واقع.**

**ثجيل، بعد ذلك الفجر، صار يهذي بوقائع غريبة بعد أن قال له شخص بأنه دفن صوفاً أو خشباً أو حديداً وليس جثة الكاطع، وهو أمر لم يخطر بباله تلك الساعات المجنونة.**

**خطر له أن يسأل فاطمة لكنه قرر التريث في الظرف العصيب الراهن. أما فاطمة نفسها فإن التحقيق معها حول حكاية العودة بعد الدفن في دائرة الأمن، قد جعلتها تعيد النظر في القضية كلها.**

سألت نفسها في المنزل وهي تتأمل الجدار:

ـ ألا يحتمل انه هرب منهم؟

## 4

ـ خمس دقائق ويرجع.

لو أن أحداً قرأ هذه الجملة على باب جهنم، لما شعر بالرعب الذي ينتابه عندما يسمعها من رجل أمن يطرق الباب بعد منتصف الليل، عندما كانوا يطرقون الأبواب، وبعد ذلك، بعد سيطرة نظام تحكم صارم، صاروا يأتون في النهار إلى البيت والمقهى والشارع والعمل وحتى المقبرة. صارت كل الأمكنة مفتوحة وجاهزة للاعتقال.

**هناك حالات استثنائية عاد فيها بعض الاشخاص بعد حكاية الخمس دقائق المرعبة، لكنهم، في كل الأحوال، لم يعودوا بعد خمس دقائق الكارثية بالتمام.**

**عندما أخذوا جبر الكاطع من المنزل بعد منتصف الليل، قالوا له:" ستعود بعد خمس دقائق" لكن فاطمة الحبلى تمسكت بهذه القشة كغريق. قال لها أحدهم: "كلمة شرف، خمس دقائق ويعود".**

**طوال تسع سنوات وهي تبحث عنه في سجون علنية وسرية، فوق الأرض أو تحت الفنادق والحدائق والعمارات السكنية، ورغم توسط بعض الأقارب ممن لهم صلات مع السلطة لكنها لم تستلم جواباً واضحاً عدا عبارة واحدة في كل الأحوال:**

**ـ لم يصل الينا بعد.**

بل أن هناك من قال لها مرة إن حكاية اختفاء زوجها مفتعلة من الأساس وانه قد يكون خرج من المنزل في زيارة ولم يعد لأنه إما أن يكون قد انتحر لسبب عاطفي أو فقد عقله وهو بلا وثائق أو قُتل في حادث طريق.

تسع سنوات والجواب نفسه. كبرت زهور وصارت في المدرسة ولم تسمع غير الجواب نفسه بأن الكاطع لم يصل بعد. كل من في المدرسة من معلمين وتلاميذ وعمال تنظيف عرفوا اختفاء الكاطع لكن أحداً لم يجرؤ على السؤال يوماً بما في ذلك الصغار، لذلك تصورت زهور ان اختفاء والدها حالة طبيعية كالشروق والغروب والمطر والولادة والريح.

ليس الناس وحدهم بحاجة إلى لغة سرية للتفاهم والتداول، بل أجهزة السلطة أيضاً كانت بحاجة الى لغة مشفرة، لذلك جاءت عبارة الخمس دقائق كجزء من اللغة السرية الملغزة المتبادلة بين

السلطة وبين الناس، وصارت هذه اللغة المخترعة كافية لتوصيل أكثر المفاهيم والمعاني صعوبةً وتعقيداً بأقل الكلمات.

كما انتقلت لغة الناس إلى السلطة، انتقلت كذلك لغة السلطة إلى الناس، وصار تعبير الخمس دقائق ويعود شائعاً ومتداولاً بإفراط في المقاهي والحمامات ومحطات السفر وبين الاطباء ورجال الاطفاء والحمالين وعمال البناء وبين العشاق والخ.

ـ متى ستعود يا حبيبي؟

ـ بعد خمس دقائق.

أو:

ـ متى تصل المكان؟

ـ بعد خمس دقائق.

ـ كم يستغرق وقت الحلاقة؟

ـ خمس دقائق.

وفي الطريق إلى المقبرة:

ـ كم يستغرق الوقت؟

ـ خمس دقائق.

ليس من السهل تصديق حكاية الخمس دقائق التي هي خليط من السخرية والشتيمة والعدمية مثل كل الأشياء التي تتفسخ في هذه البلدة الملعونة التي أصيبت بمس شطياني.

مثل كل الظواهر الغريبة، ظهر نوعٍ جديد من المداهمة لم يسبق له مثيلاً من قبل. بعد أن تكون أسرة المختفي قد تعايشت مع مصيبة الإختفاء، وتعلقت بالآمال والبصيص، لتدفئة القلب، يشرع رجال الأمن بمداهمة بعض منازل المختفين بحجة البحث عن المختفي. عندما يعترض الأخ أو الأم أو الزوجة أو الأب قائلاً:

ـ لكنه موجود عندكم؟

ـ إخرس هذه ليست مهنتك.

كان الأمر كله كما لو أن خللاً أصاب توازن الأشياء. ظهرت صلاة جديدة تسمى صلاة المختفي تؤدى سراً، وفي الأعياد المقدسة ظهر نوعٍ جديد من التهاني:

ـ إنشاء الله عودة الغائب.

ـ الله لا يجعلك من المختفين.

أما اذا عاد المختفي بمصادفة عجيبة، فستكون التهنئة:

ـ مبروك العودة.

مع الصلاة والتهاني ظهر نوعٍ غريب من الاهتمام بالأغاني التي تتحدث عن الغائبين والعائدين وتقدمت أغنية المطرب وديع الصافي الواجهة( على الله تعود ـ على الله ـ يا غائب في بلاد الله) أو أغنية فريد الأطرش الشهيرة( أكتب على أوراق

الشجر، سافر حبيبي وهجر) وهناك أخرى كثيرة عن عودة الزمان والليالي ودفء العائلة وحتى عودة الطيور كأغنية سعدون جابر( يا طيور الطايرة روحي الهلي) التي جُلد بعض الرجال بسببها وهم في غاية الدهشة.

ظهر بسكويت جديدة اسمه العائد، ومنعت السلطة عناوين حمامات ودكاكين ومطاعم تحمل هذه العناوين، وقبل أيام انشغلت البلدة بحكاية المختفي سالم الراضي الذي أُخذ من منزله في سيارة سوداء مسدلة الستائر أمام الأُسرة قبل خمس سنوات، وعند السؤال عنه، يأتي التبرير الرسمي إن سالم الراضي لم يصل إلى مركز الإعتقال الذي يُفترض أن يصله في تلك الليلة، واذا وافق أحد الأجهزة على القبض عليه، فإنه لم يوافق على أنه أرسل مفرزة قبض في تلك الليلة بالذات، وهذا يعني، يقولون للأسرة، أن التباساً قد وقع، ورغم كل سنوات الاختفاء، لكن تلك المشكلة لم تحسم مع ان الفترة التي حددها مسؤول

**مفرزة الأمن تلك الليلة هي خمس دقائق لا غيرها مع كلمة شرف.**

**عندما تسأل عائلة المختفي عن مصير الإبن، يكون الجواب، غالباً:**

**ـ هرب من العدالة.**

# 5

اخترق حميد العربنجي غرفة نوم وصال بعد منتصف الليل كثور أعمى يدخل قاعة للمرايا، وقبل أن تفتح فمها، كان وميض الخنجر قد نفذ إلى قلبها قبل النصل. همست بحشرجة وهي تحت كفه العملاقة الخشنة، المالحة، من العرق والتراب:

ـ لكن قل ماذا تريد؟

رد عليها وعيناه تقدحان لهباً:

ـ وقعت على تعهد بموتي اذا لم أفعلها معك.

لم تفهم وهزت رأسها بالإنكار. قال:

ـ ليس الوقت للحوار ويجب أن أنتهي من هذا الأمر حالا، أو أتركك جثة.

حشرجت بفم جاف:

ـ لكني عذراء؟

ـ لا خيار عندي.

وبما ان البلدة دخلت في لغة مشفرة مبهمة سحرية، قال لها بلهجة قاطعة ملغزة:

ـ سيظل الباب مقفلاً، لكني سأدخل من النافذة. واضح؟

لم تنطق بكلمة واستدارت وتركته يعريها من الثوب الناعم الشفاف الأزرق الذي يكشف لون البشرة وجريان الدم تحت الجلد البض.

تلك اللحظة نسي حميد المهمة كلها والأسباب التي جعلته يغامر بكل شيء، ومكان وجوده تحت مشاعر لذة مشعة طارئة

متوهجة، هو الذي لم يجاسد امرأة منذ سنوات، ومقارنة مع هذا الثراء والفيض والعذوبة واللدونة والبياض والوهج المهلك والحريق والجنون واللوعة، فإنه لم يضاجع أنثى من قبل.

تحت ضغط عنيف وشهي، شعرت وصال بالرعشة السرية الزاحفة تحت الجلد كحجر بركاني فوق منحدر جبلي، وكانت تحس بحاجة أقوى نحو مزيد من الضغط والتوهج والموت تحت عرق سائس الخيل المشرد وبلذة عميقة مباغتة اقترن فيها الموت والشهوة والذعر والشبق والعار.

كان هو يزحف فوق البياض كجواد يجري في براري مفتوحة على العشب والافق والرغبة والضوء. كجواد أصيب بطلق ناري فوق عشب مشتعل، داهمته العاصفة في منتصف الطريق إلى الهاوية أو الإغماء وندت منه صرخة محشرجة وشعر بمياه حارة تتفتح في جلده.

كانت هي تزحف تحت العرق والملح والليل والعاصفة والدم والحجر كطائر يحترق في دغل الرغبة.

عندما استيقظ من هلاكه وتركها مستلقية أو نائمة ومبعثرة كالرماد، صدم بكل شيء يحيط به: الليل، الغرفة، المرأة، النافذة، الرغبة، الجنون، المغامرة، رائحة العرق، العاصفة، الخوف. وجد صعوبة كبيرة في القفز من النافذة كما حدث عند الدخول، وقد يكون السبب في أنه لم يعد يملك الطاقة الحيوية على المغامرة التي تدفع المرء إلى القفز نحو الهاوية.

نجح، أخيراً، في القفز، وصار في الشارع. نظر إلى السماء كما لو انه يراها أول مرة: كان الليل ليلاً مختلفاً، وكانت النجوم نجوماً أخرى، وفي داخله تقرع أجراس شهوة حية مرتوية.

## 6

في هذا المد السحري من الوقائع المقلوبة، ظهر نوع جديد من الاختفاء، عندما أعلنت أم شرطي أمن اختفاء ولدها بصورة غامضة بعد ذهابه الى العمل في مكتب الأمن من دون أن تحصل على تفسير من زملاء المختفي، ولم يثر هذا الاختفاء مشاعر الحزن والقلق لفقدان زميل أمام الأسرة كما تقتضي تقاليد أية مهنة في العالم.

كانت الأم تكرر إنه خرج ولم يعد، أو ذهب إلى العمل ولم يعد، وهي العبارة التي ترددها زوجات وأخوات وأمهات وعوائل الضحايا المختفين. ظهرت أنواع جديدة من التعابير لم تكن مألوفة في تقاليد هذا البلد مثل:

ـ ذهب إلى المقهى قبل خمسة أعوام ولم يعد.

ـ ذهب إلى الدائرة قبل شهر ولم يعد.

ـ ذهب إلى الحمام العمومي قبل عشر سنوات ولم يعد.

ـ ذهب إلى السوق، البريد، الشاطئ، الملعب، قبل عام ولم يعد والخ.

ـ ذهب الى صديق، جامع، ضريح، بار، ثكنة، حديقة، دائرة بريد، قبل سنوات ولم يعد.

بل قالت زوجة إنها رأت زوجها يدخل غرفة النوم وعندما تبعته بعد دقائق لم تعثر عليه حتى اليوم رغم مرور ثلاث سنوات، في حين قال رجل إن ابنه ذهب الى مرحاض المنزل قرب الباب الخارجي ولم يظهر ثانية بعد مرور سبعة شهور، وقال الأب إنه ظل ينتظره على طاولة الشطرنج التي تُركت مفتوحةً كما هي لمدة أيام بعد الفوضى والحيرة والذهول، والتفسير

الوحيد الذي يمتلكه الأب هو انهم خطفوا الأبن في اللحظة نفسها التي ذهب فيها إلى المرحاض بعد أن فتح لهم الباب بنفسه ومن المحتمل أنهم قالوا له بلطف:

ـ خمس دقائق وتعود ولا ضرورة لإزعاج العائلة.

مع الوقت أدرك الناس ان الاختفاء صار حالة يومية تقريباً قد تصيب أي شخص وفي كل لحظة وليس من الممكن تجنب هذه الظاهرة الطارئة كوباء. رغم تحول الاختفاء الى ظاهرة طبيعية كالمطر والليل والرعد، لكنهم رفضوا تقبله رغم كل شيء، ولم يعد ممكناً تجنب الأمكنة التي يقع فيها الاختفاء بعد أن شمل كل الأمكنة العامة والخاصة حتى صار الناس يحسبون على أصابعهم امكنة الاختفاء التي حدثت والمرشحة للوقوع: المنزل، غرف النوم، الحمام، المرحاض، السطح، مقهى، حانة، ثكنة، سجن،

مسجد، مسبح، سرير، كرسي، ضفة، سيارة، شارع، رصيف، سينما... إلخ.

هناك حكايات تشبه حكايات السحر أو الجن أو اللامعقول مصدرها صالات السينما: مثلاً، إن الظلام والفرح الطائش والسكر والاندفاع الأعمى خلف المشاهد، أو الشعور بالأمان الزائف في الظلام وحيادية المكان والشعور بالقوة الذي يخلقه التواجد العفوي مع حشد بشري مسرور، كل ذلك، مع عوامل مكبوتة، قد يكون مساعداً على فلتات اللسان أو التحدي اللفظي النزق، تحت مشاهد الاثارة والخطر، وعلى السب الفوري لرمز سلطوي قد يكون فرداً أو كتاباً أو شارعاً أو بطلاً لمسلسل محارب أو معركة تاريخية قبل قرون ...والخ.

تلك اللحظة، يشعر المرء بيد سرية ناعمة باردة تمتد في الظلام عبر المقاعد والأرجل والأنفاس والعصور والأفلام، بكل برودة الموت الزاحف والتخشب الجسدي، وبصوت يشبه حفيف

**ثعبـان أسـطوري نبـع مـن اللامكـان، مـن العـدم، والعتمـة، وهـو يهمـس بصـوت طـال انتظـاره كمنـديل حريـري لخنـق الأمـيرات النائمات:**

**ـ من فضلك خمس دقائق وتعود.**

# 7

في الفترة الأخيرة ظهرت شكاوى غريبة من رجال الأمن عن مطاردات ليلية من قبل مختفين سابقين قتلوا في السجون أو اختفوا فيها، ومع انه أمر محير أن يطارد الموتى الأحياء، والقتيل القاتل، والمختفي جلاده، إلا أن كل شيء، هذه الأيام، بما في ذلك ظهور الشياطين العلني في النهار، لم يعد غريباً.

قد يكون هذا هو السبب الذي جعل هؤلاء يقلصون من خروجهم الليلي في الشوارع المعتمة، أو العمل كدوريات مشتركة في المداهمات التي صارت تسمى، في اللغة الأمنية المشفرة، بالزيارات.

قبل أيام جرت مداهمة منزل الحائكة العجوز الملقبة بأم غائب الذي لا يوجود له في الواقع وصار حلماً في خيال الحائكة في عزلتها، لكنها اليوم، بعد هذه الكوارث، تخلت عن هذا الحلم، بل صارت نساء الشارع يحسدنها لنومها الهادئ بلا أرق أو توقع أو إنتظار، لكن هذا لم يدم طويلاً: في ليلة مظلمة ماطرة، وريح صاخبة، داهم رجال الأمن منزلها في قلب الحي العتيق وكانت نائمة.

فزت في الظلام كمن يستيقظ في قبر أو بئر دون أن تفهم حقيقة الموقف.أضاء رجل أمن مصباح الغرفة الوحيد، فوقعت أبصارهم على كائن محطم في السرير هو بقايا الحائكة.

صرخ أحدهم:

ـ ما هذا الشيء؟

ردت العجوز:

**ـ هذا أنا.**

**سألها:**

**ـ أين جبر الكاطع؟**

**باغتها السؤال أكثر من المداهمة وردت بقرف:**

**ـ في المقبرة.**

**ـ من قال؟**

**ـ أنتم.**

**ـ نريدك التعاون معنا.**

**ردت العجوز وقد ركبها عفريت مباغت:**

**ـ على ماذا؟**

**ـ على أي شيء.**

**ـ يعني جاسوسة؟**

**ـ ليس بهذا المعنى، هذا وطنك.**

**ـ وانتم؟ ما هي مهنتكم؟**

**ـ كثر الأعداء هذه الأيام.**

**غـادرت العجـوز السـرير بصـعوبة وهمّـت بـترك الغرفـة لكـن أحدهم أوقفها، متسائلاً:**

**ـ إلى أين؟**

**ـ سأخرج إلى الشارع.**

**ـ هذا عصيان صريح.**

**ـ قلت سأخرج.**

**حاولوا منعها لكنها صرخت بقوة:**

**ـ قلت لكم سأخرج.**

# 8

كانت مديحة الأرملة تتهيأ تلك الليلة لزيارة الإبن الوحيد في السجن لأخيها المتوفى بعد أن فقد القدرة على النطق، وكانت قد حصلت على هذا الامتياز بسبب الخدمات التي قامت بها للأجهزة السرية عن أنواع الجمل والشفرات والشائعات والهمسات المتعلقة بقضية المختفين وغيرهم الذي صار من اختصاصها الوحيد في السنوات الأخيرة بعد أن غاص الناس في قيعان داخلية نفسية عميقة لم تعد الأجهزة الأمنية قادرة على سبر أعماقها.

كانت تعتقد في أعمق أعماقها بأنها تقوم بتضحية مقابل رؤية إبن الأخ الوحيد الذي قُتل هو الآخر في حادث اصطدام

سيارته بشاحنة كبيرة على الطريق العام وهو نوع من الموت صار شائعاً تلك الأيام ويسمى في اللغة السرية بحرب الشاحنات.

أحد أسوأ جرائم هذا الموت الداهم هو مقتل المهندس الكهربائي الشاب منير مع إثنين من إخوته عندما سحقتهم شاحنة على الطريق بين بغداد وبابل بعد أن تعرف جهاز الأمن المحلي، عن طريق عميل سري صديق للضحايا كانوا قد أخبروه بالسر بدافع البراءة والثقة، على الشخص الذي أوقف البث التلفزيوني في المساء خلال خطاب الرئيس.

هناك حروب كثيرة معروفة باللغة المشفرة:

ـ حرب الثاليوم، سم قاتل.

ـ حرب الكاتم، كاتم الصوت.

ـ حرب الشاحنات.

ـ حرب النوبة: نوبة قلبية أو غيرها تباغت الشخص بلا مقدمات مرضية بعد خروجه من السجن أو بعد مقابلة مسؤول.

ـ حرب جنود العسل: نوع من السموم المقاوم لكل الأمصال.

ـ حرب الهذيان: عقار غريب للهذيان الآلي.

ـ حرب السيارات: نوع غير معروف حتى للمختصين في تصليح السيارات. تنحرف العجلة فجأة عن الطريق وتفقد توازنها وترتطم بجدار أو سيارة أو تسقط من فوق جسر بسبب عطل ميكانيكي مدبر.

ـ حرب المروحيات : هي ظاهرة سقوط هذا الصنف من الطائرات المروحية بدون سبب واضح، وهي ظاهرة خاصة بالقادة العسكريين غير المرغوب فيهم الذين يجب التخلص منهم ثم إجراء مراسم عزاء لهم وجنازات فارغة في الغالب لصعوبة العثور على جثث بعد الاحتراق.

**حالات موت كثيرة غير شائعة كالموت المباغت خلال الطعام أو الضحك أو في السرير أو أثناء المشي من دون أي تفسير لهذه الحالات عدا التفسير القدري المعروف رغم ان نوعية الضحايا تترك ظلالاً من الشك والارتياب.**

**تلك الليلة داهم رجال الأمن منزل الأرملة فجأة وكانت مستيقظة عندما دخلوا غرفة النوم في الساعة الحادية عشرة والنصف.**

**صرخ أحدهم:**

**ـ أين هو؟**

**ـ من؟**

**ـ إبن الأخ.**

**قالت محتارة:**

**ـ لا أفهم؟**

ـ أين خبأتهِ؟

ـ هو في السجن كما تعرفون.

ـ لا نعرف شيئاً.

ـ فتشوا المنزل.

ـ هذا لا يفيد.

ـ ماذا جرى؟

ـ ليس هذا عملكِ.

ـ  هل هرب من السجن؟

ـ من قال لكِ انه هرب؟

ـ لماذا اذن تبحثون عنه؟

كانت الأرملة تلك الليلة في تمام زينتها وقد جهزت نفسها لزيارة الغد كما لو انها ذاهبة إلى حفل أو عيد أو موعد سعيد.

كانت في الأربعين من العمر، في موسم نضج القمح، وظهور الزغب الذهبي على الجسد المتألق في صيفه الأخير.

بهذه الطريقة كان مسؤول مفرزة المداهمة ينظر نحو الأرملة المداهمة والباكية لهذه النهاية المأساوية للإبن الوحيد السجين، ولم تكن تعرف لشلل في الوعي يتركه هذا النوع من الرعب ان الغرض من هذه المداهمات هو خلق الفزع العام الذي يشل طاقة الرفض، أولاً، والتخلص من السجين المغدور في السراديب، ثانياً، ونقل تهمة وهمية، ثالثاً، إلى الأهل لحشرهم في خانق ضيق.

طلب آمر المفرزة من المجموعة الانصراف وتركه وحده معها وبلغة اشارية يفهمها هؤلاء قريبة من لغة العصابة أو المافيا، تضاف إلى اللغات المشفرة الكثيرة المنتشرة في البلد في هذه الحقبة المشؤومة.

كانت قد فهمت المطلوب بعد أن أغلق الباب بهدوء ونظر إليها تلك النظرة الشهوانية الخليط من السطو والاغتصاب والاذلال. تلك النظرة التي تسطع في عيني الذئب في لحظة الانقضاض على الفريسة.

جردها من ثيابها دفعة واحدة، وعندما صار فوقها، كانت تبكي بصمت ثم ارتفع النشيج واهتز السرير، اهتزت الأرض، وأخيراً النجمة المشعة في الليل الصافي، عبر النافذة.

وحدها النجوم ترى موت الأرامل.

# 9

أكثر حوادث الاختفاء دوياً وشهرةً في البلدة هي حادثة اختفاء بشرى المحامية الحسناء وصاحبة أجمل ساقين نصف مكشوفتين ظهرا في تاريخ البلدة بتعبير كاتب العرائض(الكاتب العمومي) كاظم مجيد الذي يقول في لحظات السكر إن مرورها الصباحي من أمامه في الطريق إلى المحكمة، يجعل مصيره يتبدل ولا يكاد يتعرف على نفسه.

هذا المرور العابر الملهم، يقول، يمنحه القدرة على الإبصار العجائبي حتى ان شكل الأشياء العادية يتبدل بعد ذلك، وهو أمر لا يتحقق له إلا في لحظات الصلاة المتروكة، الآن، أو النبيذ المعتق.

هـذه النخلـة المشـعة المتوهجـة، هـودج الأجـراس والأعيـاد الصـيفية، أعيـاد أراجـيح الطفولـة، مواسـم العصـافير والزهـور، احتفالات الحصاد، دخلت على نحو مباغت في قائمة المختفين بصورة عاصفة، مما ترك فزعاً لأنها أول امرأة تختفي هنا في توجه واضح وملموس لتوسيع دائرة الرعب.

أكثر الـذين عـبّروا عـن حسـرتهم لهـذا الاختفـاء هـو الكاتـب العمومي أمام باب المحكمة الذي ، يقول، إنه فقد الحافز الوحيد الذي يجعله يجلس في هذا المكان الموبوء بالمشاكل طوال النهار، ورؤية خروج ودخول قنينة العطر تمشي في زمن رمادي لا ينتج سوى الغبار والصمت والموت.

ظهر مفهوم( القوى الخفية) ومن الواضح انه خارج من مطبخ الشرائح المثقفة لكنه لم يدخل مجال الاستعمال والتداول الواسع لغموضـه، أولاً، ولكونـه يعـني حـالات كثيرة، ثانيـاً. هنـاك القوى

الخفيـة في الانسـان، القـوى الخفيـة في الكـون وأسـراره، وفي القاموس السياسي استعمالات مبتذلة كثيرة لهذا المفهوم المرن. مع ذلك صار مع الوقت أحد المفاهيم المحرمة والممنوعة من التداول بموجب قوانين السلطة المختفية هي الأخرى خلف بنايات وعناوين وخطابات وعقائد وشعارات ومعتقلات والخ. السلطة تعشق الأقنعة ولا ترفعها إلا في ساعة الخطر.

كلما تصاعدت المحنة، ظهرت مفردات والغاز وجمل وتعابير جديدة حتى تحولت اللغة إلى أنقاض ولم تعد تقول شيئاً. صار الكلام لا يوحي بل يخبئ، صار نوعاً من الرموز والتأتأة القسرية أو مواء قطط. صارت اللغة منفى.

أنقاضاً،صار الجسد البشري.

بعد اختفاء المحامية، ساد إنطباع واسع ومخيف مفاده أن اي شخص، ذكراً كان أم أنثى، مرشح للاختفاء في يوم ما، لذلك حفر الناس أنفاقاً سرية نفسية داخلية وأقاموا فيها في الليل

والنهار، في العمل والمنزل، في الصمت والكلام، في الواقع وفي الحلم. تحول الناس إلى سراديب متنقلة ترطن ولا تتكلم.

دخل الرعب القلعة الوحيدة الحصينة وهي قلعة الأحلام العميقة البعيدة والعالم الداخلي للانسان، وصار الحل الوحيد هو التخندق في الانفاق النفسية العميقة لكي يختفي هو الآخر من هذه الريح المخيفة حيث الموت هو المتجول الوحيد في شوارعِ فارغة من كل شيء إلا من الريح والشرطة والرعب.

# 10

بزغ خوف طارئ من الساعات اليدوية والراديو الصغير واقلام الحبر والهواتف ومن كل شيء بما في ذلك الخوف من وراء الحيطان والأشجار أو الشواهد الرخامية في مقبرة الأطفال الوحيدة في البلدة. خوف غير مسبوق بل هو رهاب. خوف لا يشبه الخوف من الأسد أو السقوط من حصان أو من الطوفان أو السلاح ولا جذور له في الذاكرة، لذلك لم يشعر البعض بمخاطر جدية من هذه الأدوات. قد يشعر المرء بالخوف من السقوط من فوق بناية أو القتل بالرصاص أو السكين أو الشنق أو حتى يخاف من ظهور الجن، لكنه لا يشعر بالخوف نفسه من الساعات اليدوية، مثلاً، لأن هذا النوع من المخاطر بلا بنية في الذاكرة الجماعية، لكن الامور لن تبقى كما هي مع تراكم الخبرة والقلق.

تلك الفترة بدأت السلطة تمنح ساعات يدوية كهدايا في مناسبات سياسية منتقاة، تلك الساعات هي مصدر الشك الأكبر، بعد أن صار كل شيء هدية من النظام بما في ذلك الحياة والنوم والضحك والمشي، والويل لمن يرفض هدايا الرئيس.

كان حميد السائس صاحب العربة الجوال أكثر المذعورين من هذه الساعات ومن السهل عليه القفز من عمارة على الكلام بحضور شخص في يده هدية من هذه الساعات المخيفة. بل يفضل النوم قرب تمساح أو ضبع على رؤية هذه الساعات الجهنمية. أُغلقت كل الأبواب من الداخل والخارج وحوصر الناس داخل جلودهم وأحلامهم. إلى اين المفر؟

خلال رحلة لعينة إلى العاصمة بغداد جلس في مقهى على شارع عام لشرب الشاي ورمق ساعة غريبة الشكل في يد رجل

جالس إلى جواره. كان الوقت قد فات للهروب أو تغيير المكان عندما فاجأه الرجل بسؤال:

ـ من اية مدينة لطفاً؟

فكر في أن كل كلمة يقولها الآن، سيسمعها أكثر من شخص بما في ذلك الرئيس، وكان قد سمع عن جهاز سري وظيفته جمع النكات من الشارع لذلك حرص على أن يختار كلماته بدقة وحذر. سمع صوته يخرج متردداً:

ـ أنا سعيد وفرح.

ـ لم أسألك عن ذلك.

ـ كل شيء جيد.

كانت الساعة الشيطانية تطل برأسها كصل أفعى في العشب أو الرمل. شعر بهلع يصعد إلى صدره ويعرقل تنفسه. جف فمه. أحس أنه عاجز عن الحركة والرؤية وبدا كل شيء غائماً ورمادياً،

وسيطرت عليه رؤيا مغلقة كريهة ورأى نفسه في قصر كبير بحراس ورؤوس بشرية ترتدي أقنعة وتحمل حراباً وأعمدة عملاقة من خشب نادر ورخام ومرمر. سبح في الهواء الأزرق وشعر انه انتقل الى العالم الآخر قبل أن يشرب الشاي.

تلك اللحظة، بين الحياة والموت والرؤيا والكابوس، شاهد طيف جبر الكاطع يعبر الشارع وهرع لملاقاته، لذلك شعر بالإثم والخطأ يسري في روحه وتحت جلده من هذه الرؤيا المضادة للقانون.

حاول إنتزاع جسده من الكرسي لكنه صار بخاراً وتحرر من كل ضراوة السؤال وصار طيفاً. البائع الجوال لا يعرف ان هذه هي طريقة الانسان البدائي عندما كان يداهمه خطر أو برق أو عاصفة أو حيوان مفترس.

**لم يعد موجوداً على أي كرسي في العالم، بعد أن دخل في النفق الداخلي، ولا توجد قوة في الأرض قادرة على الإمساك به، حياً.**

**شرع في الصعود من داخل مقهى.**

# 11

في ساعات احتضاره الأخيرة تذكر والد جبر الكاطع أمرين مهمين في تلك اللحظة الحرجة: سيموت من دون رؤية جبر، وسيموت بلا وثيقة الأحوال المدنية، وفشلت كل محاولات فاطمة من أجل اطلاق سراح جبر لساعة واحدة تحت الحراسة المشددة.

وجدت نفسها في دهليز طويل لم تكن تتوقعه أبداً. عرفت من الاحاديث المبتورة والملامح ان جبر الكاطع لم يصل الى المكان المقصود حتى اليوم رغم مرور أكثر من خمس سنوات على الاختفاء. قد يكون في الطريق. قالوا لها. تعرفت في بحثها على سجون كثيرة في مدن وأمكنة لم تسمع بها من قبل، وفي كل هذه الجولات كانت زهور تنام وتصحو على طيف هارب لأب شبح مرة وعلى شكل فراشة مرة أخرى.

صار جبر الكاطع في خيال زهور رمزاً لكل ما هو جميل ومحرم وملعون. هو الخطر على الأمن، الخطر على النظام، التهديد السري للإستقرار، هو احتمال الاطاحة بالوضع القائم، هو المكان المختفي، السري، المغلق، المظلم، الموجود وغير الموجود في مكان ما على سطح الأرض أو باطنها، هو الشوق والأمل والدمع والسر.

تلك الليلة نام والد جبر، مبكراً. كانت ليلة ربيعية لكنها ماطرة برذاذ ناعم. في أعماق الليل والنوم، في العتمة الدافئة التي يحرسها فانوس صغير معلق في سقف هو مأوى للعصافير والخفافيش والسنونوات، فز من النوم على مشهد في غاية الغرابة والجمال. رأى في المنام فارساً بعباءة خضراء يقترب من داره كان قد رآه يوما في صور الأضرحة. قال له بعد أن ترجل من فرسه:

ـ جئت لزيارتك الليلة.

ـ مرحباً بك، يا سيدي الكريم.

ـ هل عرفتني؟

ـ ولي صالح أو إمام.

فتح له الباب في حرج وفوضى:

ـ خطوة كريمة، يا سيدي.

ـ لن أتأخر كثيرا. ماذا تطلب مني؟

ـ بعد الشكر أريد رؤية ولدي جبر.

ـ أنا جبر يا أبي.

جفل على صوت مطر ناعم في الخارج لتلك الرؤيا الباهرة وبهدوء فريد يغمره كماء حار، كما لو انه صار بلا جسد. عرف

بحواسه شعور الأمل والشوق والإبوة أعمق من قبل، لكنه شعر بنعاس عميق وجارف يحمله بهدوء نحو نجوم بعيدة...بعيدة.

عندما كف المطر عن الهطول، ساد صمت صلب وكثيف يشبه صرخة تائهة في صحراء عريقة في القدم.

ظلت الجنازة مطروحة في المنزل وانشغلت فاطمة بمراسم الدفن التي لن تتم بلا بطاقة ولادة وهو هاجسه حتى اللحظات الأخيرة رغم شبح الموت المقترب.

في دائرة الأحوال المدنية قيل لها إن بطاقة الولادة لن تكون سهلة وشروطها كثيرة وصعبة. كان عليها استحضار، أولاً، شاهدين من كبار السن يعرفان الفقيد جيداً ويشهدان على ولادته حقاً. دُهشت. اذا لم يكن قد ولد حتى الآن، فكيف يمكن أن يموت؟ ولمن تعود تلك الجنازة؟

عليها، ثانياً، جلب وثائق رسمية تؤكد بوضوح مكان الولادة وعنوان السكن الأخير والحالة الاجتماعية كأعزب أو متزوج، الأولاد، يوم وشهر الولادة والخ. بعد ذلك يجب الحصول على شهادة وفاة مصدقة من المستشفى يذكر فيها يوم الوفاة والسبب مع طوابع بريدية غالية الثمن كما لو ان المرحوم سيرسل كطرد بريدي إلى العالم الآخر.

لم تعثر لا في الشارع ولا في البلدة على من هو على استعداد للشهادة على الولادة وعلى الوفاة بعد أنقراض الأصدقاء والمعارف القدماء، وانشغال الشباب هذه الأيام بالموت والقتل والرعب. قالوا لها أن أحداً لا يعرف على وجه الدقة من أين جاء المرحوم؟ من الجنوب ؟ من الجبال؟ من الصحراء؟ من السماء؟ أم انه شبح؟ ومع انهم شهدوا له بحسن السيرة والسلوك إلا أن أحداً لم يفكر في الشهادة، واكتفوا بالصلاة على روح الميت.

من يدري؟ قد يكون الأمر كله مدبراً من قبل الأمن والحزب لمعرفة أصدقاء الفقيد والمتعاطفين معه لأن مفردة(متعاطف) مع معارض أو محتج أو معدوم أو مختلف مع النظام تضعه في منزلة العدو.

كانت فاطمة تطوف البلدة وزهور تركض معها كغزال صغير مستثار. شعرت أن الرحمة تلاشت، والقوى الخفية سيطرت على أعماق الناس، وشمت في الهواء رائحة تفسخ وعفن في كل مكان ورأت كما يرى النائم جثة كبيرة بحجم المدينة تتمدد على الأرض عاريةً كهذا النهار، وهذه الفترة الأسطورية.

مر النهار وحل المساء والجثة ممددة في الغرفة كما لو ان الفقيد كان نائماً كعادته في الظهيرة أو في المساء. قررت نقل الجثة إلى المستشفى أو رميها في الشارع لإجبارهم على الحصول على تصريح بالدفن.

قال لها طبيب، وهو سجين سياسي في الماضي، إنه سيتكفل بالمسألة وعليها العودة الى المنزل والهدوء. قال:

ـ تعالي في الصباح.

في الصباح ذهبت إلى المستشفى مبكراً مع زهور وقيل لها إن عليها الذهاب إلى دائرة الأحوال المدنية لاملاء استمارة عادية: كتبت اسم المرحوم، لكنها توقفت عند تاريخ الولادة. قال لها مدير الأحوال المدينة، مبتسماً:

ـ سجلي تاريخ الولادة وتاريخ الموت في اليوم نفسه.

هل كان يسخر؟ أم انها اللغة المشفرة؟ نولد ونموت في اليوم نفسه؟ سجّل تواريخ مرتجلة عن الولادة والموت. سحب نموذج بطاقة الأحوال المدنية وسجل عليها المعلومات وختم على صورة الفقيد الذي كان مبتسماً وشاباً، قائلاً:

ـ هذه بطاقة الولادة، أولاً، مبروك.

## 12

تسـربت معلومـات مجهولـة المصـدر عـن سـر اختفـاء بشـرى المحامية. جرى ذلك على خلفية اجتماع بين والد سالم الراضي وبين نائب المدعي العام وهو رجل أمن. سأل الأب المفجوع عن رأي القانون بهذه الظاهرة؟

رد النائب:

ـ عن أية ظاهرة تتحدث؟

ـ الإختفاء القسري.

حدجه النائب بنظرة ثاقبة، قائلاً:

ـ هذه أول مرة أسمع بذلك. هل نحن أمام عبارة جديدة في اللغة السرية؟

ـ لكنك لم تجب على سؤالي يا سيدي؟

قال النائب، مخففاً:

ـ وما هو رأي الأنواء الجوية بالمطر والبرق؟

قالت بشرى بتهذيب:

ـ هذه لا تشبه تلك. هذه ظاهرة سياسية وليست طبيعية.

أجاب، غاضباً:

ـ لا توجد حالة اختفاء واحدة. إما حالة هرب أو انتحار خلال الاستجواب أو حالة خرف مفاجئة بحيث ينسى السجين عنوانه. هذا كل شيء.

في أعماق الليل، كثعبان يزحف في العشب، جاءت سيارة سوداء مضببة الزجاج، ومعتمة، من تلك السيارات الشبحية التي تصعد إلى سطح البلدة من أعماق الجحيم، وتوقفت عند باب المحامية بشرى في صمت الليل والمصابيح والشوارع والنوافذ والنجوم.

ـ خمس دقائق آنسة بشرى إذا أمكن.

# 13

"ما هي الخطورة اذا كنا نحتضر؟"

ـ المؤلف.

*

ـ كبسة.

صرخ عدنان البولاني، مبحوحاً، لكن رجال الأمن كانوا قد صاروا على مبعدة أمتار من الشلة التعبانة وهي تسمية خاصة لا يعرف مصدرها أُطلقت على مجموعة من المهمشين والمدمنين على الشراب والقمار والشاطئ والغناء والبكاء السري الصامت

الذي ينبت في العيون كنباتات البرية وصيحات طيور النهر المباغتة.

الكبسة لم تكن متوقعة عكس باقي المداهمات التي كانت تتسرب أخبارها عبر زوجة شرطي أمن أدمن على الشراب في السنوات الأخيرة وصار يبكي كلما التقى بضحاياه الذين جلدهم في السجن، ومنهم راوي هذه الحكايات الطالع تواً من سنوات المراهقة في أيلول عام **1970** بتهمة توزيع منشورات تبدأ بمقطع قصيدة للشاعر عبد الوهاب البياتي يقول:

- " قم تر الأفق مشاعل -

وملايين المساكين تقاتل".

كانت زوجة شرطي الأمن تعشق بعلنية وشراسة أحد زبائن هذه الشلة كاظم العرضحلجي أمام باب المحكمة، ولا تنكر

ذلك أمام زوجها المتدهور مع الوقت وكات تضربه وتمزق ثيابه وهو في حالة سكر شديد، وكانت ورطته المريرة عشقه العاصف لهذه الحسناء العاهرة كما يقول عنها في نوبات السكر المتزايدة، لكن تلك الكبسة كانت مباغتة بكل المقاييس.

قال لهم شرطي الأمن:

ـ أرجوكم لا تقلقوا على شيء.خمس دقائق وترجعون إلى الشاطئ. مفهوم؟

ـ مفهوم.

حُشروا في السيارة اللاندكروزر البيضاء المشؤومة التي صارت رمزاً للرعب والجنون، بل هناك من قال إن هذا النوع من السيارات هو شكل حديث لملاك الموت. في دائرة الأمن وضعوا على جدار كصف واحد طويل وقالوا لهم إن السيد ضابط

الأمن سيحضر بنفسه للحديث معهم. كانوا على التوالي من اليمين إلى اليسار حسب التسلسل: كاظم مجيد، عوان الأخرس، عدنان البولاني، علوان زنبور، مهدي العجماوي والأخير هو والد مخبر الأمن عن منشورات الشوارع قبل سنوات.

حضر ضابط الأمن بشاربه الشهير الثوري نموذج تلك الفترة الذي يخافه عوان الأخرس أكثر مما يخاف ملاك الموت، وكان السكير البولاني المقيم في كوخ على الشاطئ مع كلبه يقول إن ملائكة جهنم يحملون هذه السحنة. استعرضهم الضابط كما يستعرض جنرال جنوده قبل الحرب. صرخ فجأة في وجه علوان زنبور:

ـ أنت يا كلب، هل تسمعني؟

ـ نعم،يا سيدي.

**ـ ما هي حكاية الزنبور هذه؟**

**ـ لقب عائلي، يا سيدي.**

**ـ هل تعرف معنى الزنبور؟**

**ـ لا أعرف، يا سيدي.**

**ـ أنت من اليوم عمران الجحش.**

**ـ لكن...**

**ـ خذوه.**

**اقترب الضابط من كاظم مجيد الكاتب العمومي قرب المحكمة ـ العرضحلجي ـ ورماه بنظرة قاتلة من الأسفل إلى الأعلى كما يفعل مع خروف وقال بلهجة مليئة بالغل:**

**ـ متى تصبح بشراً؟**

**لم يرد كاظم.**

ـ هل تسمع؟ سألتك، يا كلب؟ هل مازلت تنام مع زوجة شرطي الأمن...؟

ـ ليس دائماً.

وصل الضابط إلى عدنان البولاني المترنح وسأله وهو يضع عصاه في بطنه:

ـ كيف حالك؟

ـ بخير.

ـ نحن راضون عنك كثيراً.

ـ شكراً، يا سيدي.

ـ لكنك لم تسألني عن السبب؟

ـ لكي لا أحرجك في السؤال، يا سيدي.

**ـ لأنك كأس ومعدة وقضيب. هذا كل ما نريده لكي يستقر الأمن.**

**ـ شكراً، يا سيدي.**

**كان عوّان الأخرس الذي لا يسمع إلا نتفاً مشوشةً من كل هذا الكلام الغريب قد وصل إلى مرحلة التداعي عندما وصل اليه ضابط الأمن الذي يخاف منه في الكوابيس أكثر من الواقع:**

**ـ هل تسمع، يا عوّان؟**

**خرج صوت من جوف عوّان يشبه الخوار أو الشخير لأنه يسمع ولكنه غير قادر على الكلام.**

**ــ قل لي اذن لماذا يصرخون خلفك بهذه الكلمة" زنبور" وخاصة صفوان عبد الرحمن الشيوعي وفي بعض الأحيان في مقهى يوسف الحمد؟**

عوّان يعرف جيدا المعنى المشفر للكلمة وهي تعني رجل أمن أو كبسة أو مداهمة أو انصات أو مخبر أو ساعة أو راديو صغير وحتى خلف أشجار السدة المعمرة بعد أن تحولت كل الأمكنة إلى مراكز للتلصص. صدرت تأتأة حادة طويلة كما لو كان عوّان قد بدأ يعوي لكن الضابط أوقفه. توقف، قليلاً، عند مهدي العجماوي الواقف بثبات ووقار وهدوء، قائلاً له:

ـ نحن نقدر خدمة ولدك لكن وجودك مع هذه الحثالات غير مقبول.

وتركه دون أن ينتظر الجواب وتوجه إلى الجميع قائلاً:

ـ منذ الآن ستوقعون على استمارة انتماء للحزب. مفهوم؟

ـ مفهوم، يا سيدي.

كانت الاستمارات جاهزة في انتظار التوقيع وقد أعدت مسبقاً، وشرعوا في التوقيع بلا قراءة المحتوى من الخوف، واكتفى عوان الأمي بالبصم. قال الضابط، منتشياً:

ـ هذا جيدا. انتم من اليوم وكلاء أمن بتعهد خطي بإرادتكم وصرتم مخبرين بصورة رسمية.

تململ الصف الواقف قرب الجدار في مواجهة مفرزة مسلحة من رجال الأمن في وضع تأهب لإطلاق النار على معدومين في أية لحظة:

تابع الضابط:

ـ الآن، سنوزع عليكم الأسماء الحركية.

جاء رجل الأمن المعروف علي شحاتة العجلاوي اختصاصي التشهير الذي وقف متغطرساً، متوعداً، قائلاً:

ـ إذا رفض أحدكم العمل معنا، سنشيع عنه في كل مكان انه مخبر لصالح الأمن.

دور هذا الشرطي هو أخطر الأدوار: بحجة تقديم النصح والتحذير لبعض زبائن هذا المقهى أو ذاك من الشيوعيين المتخلين عن الحزب، بالإكراه، يقوم بتشويه سمعة الشرفاء والرافضين والساخطين، كعقاب، بهذه الصورة الماكرة:

ـ احذروا فلان الفلاني لأنه يعمل معنا.

في مجتمع الذعر والغموض، يصبح مثل هذا التشنيع من الحقائق الصلبة التي تلحق بحياة الأبرياء مدى الحياة، وغالباً لا يعرف هؤلاء الضحايا ان سمعتهم ملطخة بعد أن صار الكل يخاف من الكل. مجتمع يسقط نحو الهاوية.

بدأ العجلاوي بقراءة الاسماء:

ـ علوان زنبور؟ اسمك الحركي بكر.

ـ عدنان البولاني؟ اسمك الحركي عمر.

ـ كاظم مجيد؟ اسمك الحركي عثمان.

ـ عوّان؟ اسمك الحركي بلال.

ـ مهدي العجماوي؟ اسمك الحركي علي.

قال الضابط في النهاية:

ـ هل هذا واضح؟

ـ نعم، يا سيدي ـ رددت الجوقة على الحائط.

حاول علوان زنبور تغيير الاسم، متوسلاً، بصوت تالف:

ـ أريد تبديل الاسم الحركي إلى عقيل؟

ـ لماذا؟

ـ لأنه أستشهد في كربلاء.

ـ والآن، إنصرفوا.

بعد ساعات كانت البلدة كلها قد عرفت بلغز هذا اللقاء الغريب على حائط وامام مفرزة مسلحة لعدد من السكارى مع أن أحداً من هذه الشلة لم ينطق بحرف واحد عن السر.

قال البولاني في كوخه على الشاطئ:

ـ كنت مصمماً على ابلاغ أصدقائي لكن ليس بهذه السرعة.

وقال كاظم مجيد:

ـ أعتقد ان شرطي الأمن زوج العاهرة هو الذي نشر الخبر لكي ينتقم.

لكن العجماوي الذي هرم في ساعات قال:

ـ أنا أعتقد أن دائرة الأمن هي التي سربت الخبر لكي تضرب أكثر من عصفور بحجر واحد: لكي تشوه هذه الأسماء الدينية المقدسة، اولاً، ولكي تشوهنا نحن أيضاً، ثانياً، وتتستر وتغطي على المخبرين الحقيقيين، أو تخلق لهم حكايات بطولية أمام الناس كالاعتقال العلني والضرب أمام مقهى لتسهيل الاندساس وغير ذلك من حكايات ملفقة تخترق بها عقول البسطاء والحاقدين،ثالثاً.

نبح كلب البولاني على الشاطئ، فجمدت الشلة. هناك أقدام تقترب متوازنة هادئة غير مستعجلة تدوس العشب والاشواك البرية، كانوا في وضع ترقب وانتظار في أن يطل عليهم وجه ما أو خنزير أو مصيبة أو مداهمة أخرى.

شعر كل واحد بذنب غامض لكل هذه الوقائع الغريبة، وعندما اقتربت الخطوات وضع كل واحد منهم رأسه في رقبته في انتظار العاصفة.

كما يحدث في الحكايات وفي عالم السحر، ظهرت من فتحة باب الكوخ أصابع بيض ناعمة مشعة، كسرب من أشجار السرو في نهار ماطر، غيّرت في لحظة كل المشهد الرمادي الكالح والمخاوف المتناسلة، وشعروا أن الزمن قد تحنط في تلك اللحظة الذهبية المشعة في هذا الزمن الهش الذي تمتلك أصابع أنثى فيه كل هذه القدرة على صياغة مشاعر ومصائر الناس.

الوحيد الذي شعر بجفاف الفم والدم وصار قلبه ينبض كجواد منهك ومحموم ومرتعش، هو كاظم مجيد الكاتب العمومي، لأن هذه الأصابع المسافرة بين باب الكوخ والأبدية والشاطئ يعرفها جيداً بعد أن صارت هويته الأخرى وذاكرته في هذه الأيام المخيفة.

بعد الأصابع، ظهر الوجه المزيج من القمح والعسل والذعر والطفولة والرغبة المتوهجة كأجنحة حشرات ليلية مضيئة من تلك التي كان يراها الراوي في الجبال في سنوات حرب الجبل.

قبل أن يرى الوجه، صرخ كاظم:

ـ لماذا جئتِ؟

أجابت بصوت ساحر خليط من أجراس ومطر وعشب وماء وضوء وفرس تركض في برية طليقة:

ـ أريد أن افهم حكاية خلفاء الأمن السري؟

ـ وكيف عرفتِ؟

ـ الجميع يعرف.

ـ من سرب الخبر في رأيك؟

ـ لا أعرف ولكنه ليس زوجي كما تظن. هل كنت مضطراً لذلك؟

ـ وضعونا إلى جدار وأمامنا مفرزة بنادق جاهزة. هذا كل ما في الأمر. انصرفي قبل أن يصل شخص غريب.

في ساحة بيع الدجاج كانت بائعة تنادي بهذه الصيحة:

ـ دجاج الخلفاء، شهي وحي.

من خلف نافذة صاحت فتاة عندما مر علوان زنبور من أمام المنزل في الليل:

ـ عقيل؟

في مقهى يوسف الحمد صاح أكثر من صوت عندما دخل عوّان الأخرس:

ـ بلال.

بعد عودة كاظم الى المنزل، ثملاً، منتصف الليل، قالت له زوجته، غاضبة:

ـ بعد السكر، صرت خليفةً يا عثمان؟

الوحيد الذي لم يغادر الكوخ على الشاطئ وفضل العيش بين الكلب والكوخ والنهر والنبذ والعزلة والقمر ورائحة العشب والطين هو عدنان البولاني، لكنه سمع في أعماق الليل، كما يسمع النائم أو الحالم، صوتاً من قلب النهر يناديه بالاسم الحركي المشؤوم.

من دون جواب، وقف خارج الكوخ يبول على الليل والصوت والألقاب والنظام والأمن، وتذكر قولاً لنجيب محفوظ قرأه في رواية له: كيف يمكن أن يكون الأمن موجوداً والعدالة غائبة؟

**ضحك البولاني في هذه العزلة المضيئة تحت نجوم الليل، عزلة الهامشي والمنفي في بلاده مع كلب على شاطئ يعوي على قمر بعيد.**

# 14

ـ صدناه.

هذه الصيحة الاحتفالية، صيحة الجحيم والأهوال، شاعت في السنوات الأخيرة بعد تصاعد المداهمات، داخل وخارج الانسان، في المنازل أو في القيعان النفسية، وتوسع نطاقها حتى شمل قرى قيل انها اختفت من على سطح الأرض وبساتين ومستنقعات وطيور هاجرت مستوطنات مائية عريقة في القدم، اختفت صور الرئيس العجوز واختفى هو نفسه، كما اختفى نصب الجندي المجهول في شارع السعدون، اختفت الساحة الوسطية الصغيرة التي يقف فوقها شرطي المرور في بغداد لكي لا تستعمل كمنصة اغتيال للرئيس حسب نصائح فرقة "جنود الشفق والغسق" البريطانية المكلفة بتدريب الحماية الخاصة التي اكتسبت خبرة كبيرة في الحرب مع الجيش الجمهوري الايرلندي

السري،كما لو أن البلاد توشك على الاختفاء، وأن واقعاً يختفي لكي يحل محله آخر: واقع الرموز والشعارات والصور، أي مجتمع الوهم.

أي رسام سوريالي مثلا كان سيجد نفسه عاجزاً أمام تلك القوة الخفية المسعورة والوحشية التي تحاول اعادة رسم الطبيعة من جديد وتبديل الجغرافيا والتاريخ على صورة رجل معتوه مصاب بداء العظمة. في كل مرة تتصاعد، مع تصاعد الاختفاء، الحرب اللغوية التدميرية الغامضة والسرية بين الطرفين المتحاربين في حرب أهلية صامتة وغير معلنة.

ـ صدناه.

أول من سرّب هذه المفردة هو علوان زنبور بعد أن رفض العمل مع الأمن وقرر الاختفاء في البساتين والقرى المجاورة

القريبة.عندما قبضوا عليه في كمين منصوب على طريق البولاني عند حافة الشاطئ في ليل صيفي مدهش، كان لا يفكر إلا بشيء واحد هو أن ينتهي من زجاجة الشراب في هذا الليل الصيفي الصافي والمشع.

هذه الصرخة نبعت من شجرة صفصاف فوق السدة الترابية المخصصة لدرء الفيضان عن البلدة الذي وقع نهاية القرن التاسع عشر:

ـ لا تتحرك.

بدا كما لو أن الليل والنجوم والصيف والهواء والنهر والشاطئ والسكون والجن والأشجار هي التي تصرخ به في هذا الصخب الداعر. لم يخطر بباله تلك اللحظة أن يُسلم نفسه حتى لو إنهمر فوقه كل رصاص العالم، لكن المشكلة صارت في الوقت الضائع وفوات الأوان.

ـ قلنا لا تتحرك.

لم يشك لحظة واحدة في هوية الصوت، صوت شرطي الأمن السكير وزوج عشيقة الكاتب العمومي أمام المحكمة، الشريك الدائم لكل حالات الدهم والقفز على الحيطان، لكن الذي حيره أكثر من الصوت هو السؤال الذي يتوقف عليه مصيره: هل ان شرطي الأمن الخبل هو وحده أم مع مفرزة؟ لو تمكن من حل هذا اللّغز الآن لكان قراره واضحاً، لذلك استدار نحو مصدر الصوت خلف الشجرة أو في جوف الليل وسأله في منتهى الهدوء:

ـ وحدك، يا جبان.

كما لو أن الصوت كان وهماً، أو أن المشهد كان كابوساً بطيئاً لم يجب أحد خلال دقيقة أو دهور، لكن همساً نبع من الأحراش الكثيفة قد أنبأه بوجود أكثر من شخص، وأكثر من فوهة

بندقية مصوبة نحوه، هو الأعزل إلا من قنينة شراب معتقة في هذا الليل الصيفي المنذور للنسيان.

ـ كنت أظنك وحدك، تعالوا.

لم يقترب منه أحد لأنهم يعرفون هذا الرجل جيداً وهو حفيد قاطع طريق في الزمن الانكليزي الأول بداية القرن العشرين، الذي كان يصطاد جنود الاحتلال كالارانب ويقتلهم بعد نوع فريد من طقوس الطعام والاعتذار والاحترام، حتى وقع يوماً في فخ ، كما وقع حفيده، وهو في أعماق النوم، و"صُلب" على خشبة، رمياً بالرصاص، كما كانوا يقولون لأن مفردات الشنق والاعدام لم تكن قد ظهرت بعد في هذه البراري.

ـ صدناه.

سمع هذه الصيحة الاحتفالية بعد أن أنزلوه من السيارة البيضاء الملعونة، معصوب العينين. قبل أن يلامس الأرض،

كانت الهراوات والقبضات قد انهالت عليه من كل مكان ومن لامكان، كوليمة ضباع، وشعر انه سابح في الفضاء كطائر أو مظلي، وكانت المسافة بينه وبين الأرض تقاس، تلك اللحظة، بالدهور، وكان كل ما يحلم به هو الوصول إلى أرض حتى لو كانت محترقة.

عندما وضع قدميه على الأرض، أخيراً، شعر بتلك الفرحة الصاخبة الطفولية التي تصاحب المرء بعد القفز من هاوية في كابوس أو حلم، أو من يضع قدميه فوق أرض جديدة، حتى لو كان الثمن هو القتل أو العزلة في قبو سري إلى الأبد.

# 15

**زوار الفجر.**

**بسرية ثعبان يزحف في الرمل أو العشب، زحف هذا العنوان المأخوذ من فيلم مصري في كل مكان، وهو يتحدث عن الأمن، رغم أن الفيلم لم يعرض في بغداد، إلا أن العنوان انتشر سريعاً مثل كل الأشياء والمصطلحات وحوادث القتل والاختفاء والحرب السرية وقتلى الشاحنات وسقوط المروحيات والبنايات واندلاع حرائق مدبرة أو حوادث الانتحار المريبة كما حدث في الأيام الأخيرة عن انتحار مزعوم للمدعو خليل حنون وهو معلم قيادي محلي في الحزب الحاكم مع انتشار دعاية منظمة عن ان هذا الإنتحار بسبب ولع الرجل بغلام توله به حتى الموت، وهو قتل أخلاقي آخر بعد القتل الجسدي، وقد تكون الحقيقة في**

ملاحظة عبّر عنها في مكان خاص أو بين رفاق عن الوضع القائم.

وجدوا المسدس في يده اليمنى مع ان الرجل يستعمل اليد اليسري، ولم يحاول ضابط الشرطة الذي وصل المنزل بعد مكالمة هاتفية من الزوجة المباغتة بالمشهد عند دخول المنزل، أن يقدم تفسيراً لهذه الحالة رغم الحاح جار عقيد متقاعد في الجيش في كون هذا الانتحار غير واضح.

في الفجر، طرق أشخاص باب منزل العقيد وفتح الباب بنفسه بسرعة كما لو انه كان على موعد متوقع معهم:

ـ خمس دقائق وتعود.

طلب أن يرتدي ملابسه بسرعة، وبعد مرور لحظات انهمر، من فوق الشرفة، رصاص مطري فوق سيارة الأمن ورجال المفرزة الذين سقطوا، حالاً، قتلى وجرحى، ثم أطلق النار على

رأسه في الشرفة التي كانت مغمورة بضوء فجري ناعم وهادئ يتنافر مع هذا الوضع.

رغم كل السرية ومحاولات الحرق والتشويه في أن العقيد المتقاعد معتوه ومطرود من الجيش بسبب بشذوذ جنسي لكن أحداً في الشارع لم يصدق بما في ذلك حميد صاحب العربة الجوال الذي يعرف العقيد جيداً في السوق وينقل له حاجات كثيرة إلى المنزل.

أما مصطفى الترك الجندي العثماني الذي يملك تقويماً وسجلاً سرياً دقيقاً لأصحاب النزعة الغلامية من الحضانة إلى الشيخوخة، منذ هروبه من جيش الامبراطورية المتفسخة حتى اليوم، وهو سجل يشمل من بين الأسماء رجل دين، وخليل المقاول الشيوعي صاحب ورشة غسل وتشحيم السيارات عند مفرق البلدة، تقاطع طريق خارجي، الذي لا يستطيع العمل إلا مع غلام مغناج كحيل العين يعمل في مكتب مقاولاته، وغسان

مفوض الشرطة الذي كان يختبيء خلف سياج البساتين للتلاميذ الصغار في طريقهم الى بيوتهم في الريف بعد المدرسة ويقوم باغتصابهم تحت التهديد، ثم التشهير بهم في الصباح التالي، متباهياً، في انقلاب للمعايير: يصبح الطفل المغتصب ساقطاً، في حين يصبح المجرم بطلاً، في مناخ عام مشجع بالصمت أو الدعم لهذا النوع من الجرائم، قبل أن تتحول هذه إلى ممارسة شائعة في السجون السياسية.

كان خليل المقاول الشيوعي متولعاً بغلام هو السبب الواضح في دفعه لتسليم أسرار التنظيم ايام الحملة على الحزب في 1979، صار الغلام يتماهى مع الدور وتأنثت حركاته مع الوقت. في حين يقوم مفوض الشرطة بالتلويث والسحق، كان خليل يكتفي بمتعة البصّاص، في الوقت نفسه كان راوي هذه الحكايات الطويلة في السجن رغم كونه خارج التنظيم.

مصطفى الترك لم يصدق حكاية انتحار عضو الحزب أو العقيد بسبب شذوذ جنسي وقال إنها عارية عن الصحة وملفقة.

في مكان آخر وخلال عودته من مشرب وماخور سري بعد أن غطس المجتمع في سرية تامة، السلطة والناس، اللغة، والبيوت، الشوارع والأشجار، كالقمار السري، البغاء السري، المقاولات السرية، تجمعات ثقافية سرية، الزواج السري، الموت السري الغامض، سمع عدنان البولاني وهو يقترب من الكوخ على الشاطئ حركة بشرية خفيفة لأنه صار قادراً، في العتمة والشاطئ والصمت والرائحة والطين، على التمييز بين كل انواع الحركات والهمسات من حفيف الريح إلى حشرات الليل وضجة الصمت في الليالي المقمرة في الصيف.

كان علوان زنبور قد خرج من السجن اليوم، محطماً، كمسخ بشري تم تقليصه إلى أصغر حجم ممكن.

قال البولاني، مندهشاً:

**ـ هذا أنت؟**

**صوت تالف ينبع من حفرة أو قبر أو غابة مطرية أو صحراء بعيدة في مناجاة ليلية للأشباح، يقول:**

**ـ نعم. آسف لأنه لا يوجد اي مكان أنام فيه.**

**ـ سعيد بك، لكن لماذا تأخرت؟**

**ـ كم مر على ذلك لأنني كنت في جحر مظلم بلا نافذة ولا ضوء؟**

**ـ أربعة شهور. وهذه القنينة؟**

**ـ هذه دفنتها هنا قبل الفخ.**

**كان يتأمل الزجاجة كتاريخ قديم أو سيرة منسية في رمل الشاطئ والغياب والمطر والريح والليل.**

ـ عمر هذه الزجاجة يا عدنان هو عمر سجني. أنا تحطمت وهي صارت أكثر لذة من السابق.

شربا معاً. عناق وحزن وأسف. قال البولاني:

ـ حدثني عن كل شيء.

ـ يمكن أن أروي كل شيء إلا شيئاً واحداً لن تسمعه مني لأنه لا يُروى أبداً. في صحتك.

ـ في صحتك.

طوال الليل كان يروي عالم القبر أو القبو أو الجحر على عواء الثعالب الذي يعطي السرد رعشة الخوف وعمق الصداقة والحزن، ذلك الحزن الصيفي المعتق لرجل مسحوق على ضفاف نهر عريق في طقوس الحب والشعر والموت والقرابين.

نام البولاني على الحكاية من الرعب والسكر والحيرة. زحف علوان كسلحية مكسورة الظهر وسحب بهدوء وحذر مسدس

**البولاني المدفون في زاوية الكوخ في صندق خشبي وهو الوحيد الذي يعرف السر.**

**كان الليل الصيفي منعشاً والنجوم مضيئة وراعشة والصمت عميق الجذور.**

**"ليس في هذا الوقت".**

**"ليس في هذا الوقت".**

**لكن اليد تغلبت على النداء الداخلي الملح، وانطلقت رصاصة في الصدغ، وتهاوى فوق العشب رجل خرج، اليوم، من قبو أرضي.**

# 16

ذعر جديد انتشر بسبب اللحية.رؤية اللحية على وجه ما علامة على الخوف. هذا النوع الطارئ من الخوف غير مسبوق هو الآخر على مر العصور منذ ظهور أول لحية في التاريخ.

بزغ هذا الخوف أول الأمر على صورة مخاوف غامضة ثم تطورت هذه الظاهرة مع الوقت عندما ظهر رئيس المخابرات، قبل أن يُخفَّض العنوان إلى مدير، ملتحياً كرجل دين أو شيخ عشيرة أو رجل عصابات أو راهب، وبعد ذلك انتشرت اللحية في صفوف رجال الأمن وكبار رجال الدولة كما لو أن أمراً سرياً

قد صدر بذلك أو أنه التقليد الأعمى في مجتمع صار أقرب إلى القفص والثكنة ومركز الإعتقال.

لكن لا يمكن أن يكون تقليداً أعمى لظاهرة جديدة ولا أن يكون الأمر من باب التماهي المفرط بلحية رئيس أو مدير المخابرات وهو قاتل محترف يبدل كل يوم، تقريباً، سجادة مكتبه بشهادة صاحب محل السجاد المكلف بتأثيث المكتب الذي أُستدعي مرات بعد منتصف الليل بناء على أوامر عليا للإشراف على تبديل سجاد المكتب لأن المدير العام كلما عاد من نادي الصيد، مخموراً، طلب إحضار آخر معتقلين دخلا الليلة سجن المخابرات ليطلق عليهما الرصاص ويلطخ السجادة بالدم قبل النوم.

أكثر الذين أربكتهم لحية عوّان الأخرس هو كاظم مجيد الكاتب العمومي، الذي وجد نفسه، هو القادر على قراءة

أفكار الجن والطيور والخفافيش والعناكب كما يظن، في غاية الحيرة والإضطراب، وغير قادر على قبول كل التفسيرات هذه الأيام بعد أن صارت البلدة تنام وتصحو على هذه القضية المربكة الجديدة.

سيطرت لحية عوّان على كل القضايا بما في ذلك الاكتشافات العلمية الخارقة في الطب والفضاء والأسلحة والضوء والنجوم...الخ. السؤال هو: لماذا لحية عوّان؟ بل هناك من قال إن هناك علاقة بين هذه اللحية والأمن القومي.

في الجانب الغربي من البلدة،ظهرت حلقة دراويش سرية تنعقد كل ليلة جمعة، لكن في مكان يسطر عليه الخوف وهاجس الوشاية على كل شيء، من السكون إلى الفوضى، تصبح أكثر الوقائع سرية معروفةً بعد وقت قصير، حتى صار الواقع الذي نراه ليس هو الواقع الحقيقي لأن الأخير محجوب بل صار الواقع الحقيقي مختفياً هو الآخر، وهذا الذي نراه هو الوهم.

بيت الدراويش شكل تحدياً لرجال الأمن، ليست الصعوبة في المداهمة بل في الاختراق، خاصةً وان بعض رواد الحلقة هم من آباء رجال الأمن والحزب مما يعني، بلغة اليوم، كخروج وتمرد على المرويات الرسمية التي تقدم تفسيراً واحداً لكل ظواهر الحياة والطبيعة والتاريخ والمستقبل.

عندما يسود الذعر في مكان، يصبح كالوباء، ويصيب الجميع بلا استثناء. وجد أنصار الدروشة أنفسهم وهم من جيل مختلف في جو من الأمان التخيلي السحري المحرر من الخوف والجسد وانغمروا في هذا الضباب المقدس.

مع الوقت، أخذت دفوف الدراويش تتصاعد في أعماق الليل وبصورة خاصة في الأعياد الدينية أو في ليلة القدر المباركة.

هذا الجو السحري المتصاعد في هذه الفترة المضطربة، فترة الحرب الأهلية الصامتة، قد شكل قلقاً جدياً للأمن والحزب، لذلك قرروا اختراق الحلقة من قبل أفراد خلية البولاني كما صارت تسمى للسخرية، وبتمرد علني رفض الجميع هذا الدور بما في ذلك عوّان الأخرس الذي فهم، الآن، لغز لحيته في هذه القضية.

كان هذا هو السبب الرئيس الذي دفع الأمن المحلي لزيادة جرعة التشهير بالمجموعة المتمردة وتوزيع التهم النقيضة لصفات كل واحد: صار السوي منحرفاً، والأمين لصاً، والمستقل مخبراً، والشريف قواداً... والخ، وبما أننا نعيش في مجتمع من الوهم التخيلي، تصبح هذه التهم صلبة وتكتسب مع الوقت صلابة وقوة الحقيقة، والكذبة الضخمة أكثر قوة على البقاء بل الخلود من الأكاذيب الصغيرة في بلدة مغلقة كمعتقل أو ثكنة لا تتعدد

فيها مصادر الاخبار بل الأوامر فحسب سواء من سلطة النظام أو " سلطة" الشارع والمقاهي والنادي الليلي وغرف الدخان.

لكن في الوقت نفسه زيادة الحذر من احتمال تضخم ظاهرة الدروشة وغيرها من الظواهر الدينية في هذه الفترة الحرجة لأن الدروشة هي أيضا نوع من التمرد على شروط المؤسسة التي لا تعني الدروشة عندها سوى التخلي عن ايديولوجيا النظام التي لا تسمح بنظم تفكير وتخيل وحياة مختلفة.

في نوع فريد من العصيان، ظهر عوّان الأخرس في المقهى بلا لحية هذه المرة كمؤخرة عنز وسط صمت وذهول الجميع، وقام فجأة وهو يعوي أو يموء، غاضباً، نحو الجدار، وهو يردد كلمات مبهمة لا تقل غموضاً عن اللغة العامة بعد أن دخل الجميع في الأوكار السرية العميقة وصارت اللغة منفى.

غادر عوّان المقهى وهو يهز يده، غارقا في الضحك.

في هذه الدوامة لم يعد أحد يفهم أحداً وصارت اللغة رطانةً، مواء قطط أو خوار ثيران، ثم حدث تطور جديد عندما دخلت النظارة السوداء في هذه الفوضى واللغة الكابوسية.

صار ظهور النظارة السوداء في مكان ما دليلاً على التوقع والتلصص والغموض. النظارة السوداء ملخص لكل أنواع المخاوف المرئية وغير المرئية لأنها تخفي في الوراء القوى الخفية الجاهزة للانقضاض واعادة النظام إلى الإضطراب.

كما ارتبطت اللحية بالمخابرات والدين والسياسة، ارتبطت النظارة السوداء بالتلصص في مجتمع صار الكل فيه يتلصص على الكل. إن عبارة نظارة سوداء ، مثلاً، تختلف في التركيب والصورة عن عبارة زوار الفجر، لأنها تمنح صورة مادية مرئية

واضحة لمشهد رجل يقبع خلف نظارة سوداء في مقهى أو شارع أو سينما أو خلف نافذة، يقبع خلفها نظام ضخم.

اذا كانت النظارة السوداء تحيل إلى رجل واحد كلي القدرة في حالة تربص، فإن زوار الفجر تحيل إلى رجال في حالة مداهمة وتعذيب.

هذا المتربص في كل مكان هو سيد هذه الفترة الصعبة، وقد يكون سيد الحقب القادمة. صار وكيلاً لكل الكوارث والأوبئة والأعاصير التي عرفتها البشرية في تاريخها الطويل.

عوّان الأخرس عثر في الطريق على نظارة سوداء، مصادفةً، وقرر المضي في اللعبة إلى أقصى مدى من دون تفكير في العواقب لأن اللعب مع سلطة من هذا النوع كاللعب في بحيرة تماسيح، وفكر في أنه قد يأتي يوم ينزع فيه هذه السترة التاريخية،

سترة الشتاء والصيف، الأعراس والمآتم، حتى صار تاريخه الشخصي هو تاريخ سترة وجلده الثاني بعد أن حاولوا نزع الجلد الأول بكل الطرق، وتبديل اسمه الجميل الذي صار علامة في البلدة.

أليس لكل بلدة عوّاها في مجتمع صار فيه الجميع يرطنون ولا يتكلمون؟ ألم ندخل مرحلة ما قبل اللغة؟

- جاء صاحب النظارة السوداء.

هذه هي الجملة الشهيرة هذه الأيام بعد أن تراجعت جمل وعبارات واشارات كثيرة في الأسابيع الأخيرة، في انتظار مشهد رعب آخر ممسرح ولو على صورة شحاذ غريب أو بائع جوال لكي تبدأ معه لغة ما وراء الواقع المخفي، والمحجوب، والمستور. نحن، الآن، في واقع الأقنعة.

ظهر هذه المرة بائع جوال للخيوط والإبر ولعب الأطفال وعطور نسائية من كشمير ومراكش وباريس ولندن وهو يطوف الشوارع، لكن أكثر ما يثير الرعب فيه هو ساعته الكبيرة التي صارت أكثر شهرة من ضريح الولي الصالح المدفون في مقبرة الأطفال، بل تحولت الساعة إلى مزار سري وبريد رسائل من الناس إلى رئيس النظام أو غيره من الكبار من أجل العثور على المختفين أو تسليم جثثهم من باب الرحمة.

كان الناس يقتربون من ساعة هذا البائع ويقولون ما في قلوبهم من ألم بضراعة وتوسل، وهي المرة الأولى في تاريخ هذا البلد الذي يُتهم فيه رئيس بخطف الناس لأن الملك القديم كان يقتل ولا يتلذذ، وهذا تطور بريري جديد.

ظهر ساحر أثار ضجة كبرى في عوائل المختفين، في بلد المنظمة السرية، وصارت عوائل الضحايا تلتقي مع عوائل رجال الأمن والجلادين في بيت الساحر الذي يقدم توقعاته للجميع.

استطاع هذا الساحر مرة أن يحدد مكان بعض المختفين من الطرفين، من الضحايا ومن رجال الأمن الذين اختفوا هم أيضاً، بل قال لزوجة إن زوجها ضابط المخابرات قد اختفى منذ عامين خلال عمله في المقر العام وأنه سيعود قريباً في نهاية هذا الشهر وقد حدث ذلك وتسملت جثةً.

لكن أكثر نبوءاته اثارةً وغرابة هي المتعلقة بانتحار البولاني في الكوخ كما لو كان يتلو نشرة أخبار جوية، وبعد أقل من إسبوع وجد عدنان البولاني ميتاً في عزلته الطويلة على الشاطئ في موت غامض لا يُفسر بغير الإنتحار وهي نبوءة عصفت بكل الوقائع، لكن الأغرب من ذلك هو اختفاء الساحر نفسه بدون أن يعرف أحد أي شيء عن سر الاختفاء.

ظل هذا الاختفاء من الالغاز الكبيرة في هذه الفترة المضطربة، هناك من يقول إنه رآه يصعد نحو السماء على جواد أبيض في الليل، بينما هناك من قال إنه رآه يصعد بالقوة في سيارة سوداء

مضببة الزجاج بالصفعات والأحذية. لم تكتمل حلقة الألغاز حتى اختفى البائع المتحول في ليلة عاصفة.

***

في صباح يوم ماطر من صباحات أيلول شهر الغيوم البيض المتنقلة وبرودة الهواء والظل، ظهرت على جدران البلدة الطينية منشورات تحريضية تبدأ بهذا البيت الشعري:

"قم تر الأفق مشاعل

وملايين المساكين تقاتل"

عندما كان رجال الأمن يداهمون في الصباح منزل راوي هذه الحكايات، بعد وشاية العجماوي، ويقتادونه إلى السجن، كان عوّان الأخرس، قد دخل المقهى، دون أن يعرف البلوى، وهو يضع النظارة السوداء، في حين كان الصمت يتكيء على الرصيف الفارغ إلا من المطر.

# 17

المداهمات التي حدثت بعد المنشورات جعلت الناس تعتقد أن أحداً لن يكون بمأمن من الإعتقال أو الزوال أو الاختفاء في أية لحظة مهما اختلفت الأسباب، كل شخص أو شيء أو رقبة هي ظاهرة مؤقتة. المنشورات جاءت من خارج حلقة الدراويش والسكيرين والشحاذين والمنجمين والهامشيين.

إن شخصاً، في الأقل، لم ينس حكاية المنشورات طوال تلك السنوات هو راوي هذه الحكاية الذي ظل مطارداً ومنبوذاً ومراقباً طول حياته حتى فر إلى الخارج لكي يروي هذه الحكاية وهو يجلس، الآن، قرب النافذة والثلج يسقط في الشارع المضاء الأبيض الصريح.

## التسلسل الزمني للأحداث الفردية بعد المنشورات:

**1970 . أيلول، الاعتقال الأول.**

**1972 . الهجرة إلى بغداد وعمل الأم خادمة في البيوت.**

**1973.بتدخل من الروائي والكاتب المعروف جمعة اللامي يتم العثور على عمل في مجلة اسبوعية نقابية.**

**1974. الخدمة العسكرية وحرب الشمال.**

**1978. التسريح من الجيش. بعد مرور اسبوع على التسريح، الهروب إلى بغداد بعد بدء الحملة على الحزب الشيوعي وعلى الحركة الوطنية.**

1979. بعد تشرد واختفاء، الاعتقال الثاني من قبل مفرزة من الأمن العام، ليلاً، في ضواحي بغداد ــ الفضيلية في بيت للجاموس بعد اعتراف صديق. ف. نوري، تحت التعذيب خبأناه في المكان نفسه مرات. في الزنزانة يتم التعرف على البروفسور صفاء الحافظ القائد الشيوعي البارز وكان يحمل ساعة هي هدية من الرئيس العجوز لدوره في الاعداد لقانون محو الأمية والدكتور صباح الدرة في 20 آيار 1979 وقد اختفيا في السجن نهائياً، وكذلك مع الشاعر عريان السيد خلف، وسمير الحلوائي شقيق جاسم. ع. ل. م، وكفاح محمد مهدي الجواهري، والمهندس علي شمة النعماني الذي أصيب بالخرس من التعذيب، وحسين الحسيني من جريدة الجمهورية، والدكتور حسن عاكف حمودي وقد أجرى آخر عملية جراحية لاخراج رصاصة من مطارد قبل الاعتقال، ونصير علاء سعد الدين إبن أخت زكي خيري وغيرهم الكثير.

الأول من حزيران 1979: في زنزانة الأمن صادف عيد تأميم النفط. وزعوا سيجارة واحدة على كل مدخن. علّق صفاء الحافظ، ساخراً:" هذه حصتنا من النفط". الحافظ كان باسلاً وحديقةً مشرقةً في ليل الزنزانة المعتم والكريه. بعد اعتقال البروفسور الحافظ 35 يوما خرج بتدخل رئيس مجلس السلم العالمي جاندرا، وفي 4 شباط 1980 اختطف من شارع الرشيد بعد ان كان قد أوصل زوجته إلى مقر عملها، ومنذ ذلك التاريخ إختفى تماماً واختفى معه الدكتور صباح الدرة، وفي سنوات قادمة سيختفي فاضل البراك مدير الامن العام نفسه الذي كان يشرف على تلك الحملة وحصل على نوط الشجاعة بسبب نجاحه في "تقليم أظافر الطابور الخامس" كما قال الدكتاتور خلال الحفل، ثم أُعدم.

1979. بعد الخروج من السجن، العودة للعمل في المجلة بعد فشل العثور على عمل آخر حتى في ورشة غسل وتشحيم السيارات يملكها خليل المقاول الشيوعي الذي كان تلك الأيام العصيبة متولّهاً في غرام غلام يساري أملط. لكن الحرب قادمة. من الحرب إلى السجن إلى الحرب... إلى المنفى.

1980. الالتحاق بالجيش لخدمة الاحتياط في حرب الخليج الأولى.

1985. استدعاء للعمل في جريدة عسكرية بأوامر عسكرية.

1986. الطرد من الجريدة بعد عدة شهور بسبب السجل السياسي الماضي والعودة إلى خطوط الحرب الأمامية.الهروب من الحرب والاختباء في بغداد ثم العودة إلى سجن الحارثية الرهيب، نادماً.

**1987 بعد رحلة تشرد قاسية وابواب مغلقة العودة إلى الحرب، ثانيةً، من السجن.**

**1988. في العشرين من آذار، بعد ثلاثة أيام من مجزرة حلبجة، الهروب من الحرب من الخطوط الأمامية.**

**1988ـ 1989 السجن في إيران.**

**1989، 17 كانون الثاني: الهروب الى الباكستان عبر الحدود الجبلية. القبض على الحدود والسجن في مقاطعة كويتا، بلوجستان.**

**1989، العاشر من نيسان، محاولة تسليم بالقوة إلى النظام من السجن. فشل المحاولة بتدخل الأمم المتحدة ورفض السجناء. العودة من سجن كراتشي مقيدين في القطار إلى سجن كويتا.**

**1989. تموز، اطلاق سراح. السفر إلى إسلام آباد والعيش هناك كلاجئ سياسي.**

**1991. في الخامس من آذار، السفر إلى النرويج. العيش هناك حتى كتابة هذه الحكاية.**

*******

**تتشابك وقائع تلك المرحلة مع أحداث قصة قصيرة للكاتب محمد خضير تحمل عنوان(التابوت) وتاريخ الكتابة يشير إلى أيلول عام 1971 ونشرت عام 1972 في مجموعة(المملكة السوداء). في حياة صارت نصاً مرعباً، بدا أن تابوت النص أقرب إلى الواقع من تابوت جبر الكاطع الأسطوري رغم الفارق بين الزمنين لكنه زمن عراقي واحد.**

**تابوت النص الموجود قي قاعة كبيرة في محطة مركزية للقطارات مشع تحت النور مع توابيت أخرى مقتطعة من صنادق خشبية**

لبضائع كالشاي والويسكي مع عناوين قتلى قادمين من حرب ما غير محددة المعالم يسقط فوقها ضوء المصابيح من سقف المحطة.

تابوت النص من فترة أكثر استرخاءً وربما يعود إلى حرب الجبال في الستينيات لجندي قتل هناك وحملته شاحنة إلى مجمع لتوابيت القتلى المعروفين والمجهولين، أما تابوت الكاطع فهو لشخص مشبوه، بل حتى من غير الواضح اذا كان هو نفسه في التابوت المغلق أم لا، لأن الأوامر الصادرة تمنع فتح التابوت مما حوّل الأمر إلى لغز,

النهاية تبدو واحدة في الحالتين: ينتهي تابوت النص إلى أن تأتي شاحنة زرقاء يهبط منها أشخاص ببذلات رمادية متشابهة يرفعون التابوت(من دون تريث، من طرفيه، كانوا أربعة، وغابوا عن واجهة المقهى، مسرعين، بعدئذ تحركت الشاحنة، مرقت أمام الواجهة، ثم اختفت من الجهة الأخرى...في هذا النهار، في

هذا الوقت، لا أهمية لهذا الترتيب والنظام في المقهى الفارغ: المناضد فوق الكراسي، الكراسي فوق المناضد أو الكراسي، لا فرق ـ حطام... المناضد أو الكراسي في الخارج أو في الداخل ـ حطام. في هذا النهار المجهول، في هذا المكان المجهول، الآن، أو في أي وقت آخر، الفراغ وحده يتكيء على الكراسي ـ أيلول 1971). في حين ينتهي تابوت الكاطع في مقبرة على تخوم صحراء قديمة.

***

**كان الثلج يسقط عبر النافذة، في الليل، ومن الميناء القريب تطلق سفينة مبحرة صفارة طويلة، أوقفت ذكريات تلك السنوات: كان العالم غارقا في الأبيض المتوهج الهاطل الذي يتناقض تماماً مع عالم التوابيت وقاعات الانتظار الشاحبة، ومع كوخ البولاني وعالم عوّان الأخرس والمختفين.**

**الثلج وحده يسقط،عبر النافذة.**

# 18

فانوس في أقصى الليل في غرفة رجل أعمى يتلو القرآن، يقال إنه يهذي بعشق نور غامض في جوف العتمة. كل من مر تحت نافذته، سمع في أعماق الليل صوت رجل يبكي تحت هدير المطر الساقط فوق الأرض أو يغني في همس عن طاعون أسود ومدن تحت الخوف.

ـ "إلهي مهما عذبتني، فلا تعذبني بذل الحجاب"

يردد قول البسطامي الصوفي في أعماق الليل، ونور الفانوس، وأنين الأرض الصاعد من أقصى الليل إلى أقصى الفجر. هذا الصوت، البرق، يخرج من نافذة الرجل الأعمى نحو الأبواب المغلقة، كأنه يقرأ في كتاب.

إنه رويِّح الأعمى الملقب بالسامري الذي ظهر مثل كل الظواهر الغريبة في البلدة، في يوم لم يعد فيه أحد يعرف أحداً، الكل سجين في جلده أو قبوه النفسي، بما في ذلك رويّح نفسه.

كان يقضي نهاره على الأرصفة أو في السوق أو في الجامع أو في المقهى، لكنه في السنوات الأخيرة لم يعد يُرى إلا نادراً.

كان يجيب عن الأسئلة الكثيرة بما يلي:

ـ أحبه ويحبني، وكلما كان بعيداً مني، كنتُ قريباً منه.

لجأ كثيرون إلى رويّح في بعض الليالي هرباً من الذعر والترقب والليل والأرق. كان يتهدج عن النور والظلمة، عن الجذوة والنار، عن اللهب والرماد، وكانت حلقته تتسع وهو أمر ينذر بعواقب خطيرة لكنه يرفض النصائح، ويقول إن جلده يرى وأصابعه تسمع، حتى ظن بعض الناس أن الرجل وقع في الهذيان. كان يستطيع التعرف على هوية الشخص من لمس

الأصابع كما كان بورخيس يعرف مكتبته بدقة من التحسس واللمس.

قالت له أم سالم الراضي يوماً، باكيةً، و قد طرقت عليه الباب:

ـ هل رويّح موجود؟

رد عليها من خلف الباب:

ـ غير موجود ولكنه يسمعك.

دخلت، عنوةً:

ـ قل لي بحق النبي أين إبني؟

ـ عند الذي لا ينام.

همست بقلب مجروح:

ـ لكنهم يقولون إنه في سجون الأمن؟

ـ لست معك في هذه الغرفة، الآن.

ـ اين أنت، يا كريم الروح؟

ـ عند الذي لا يموت ولا يشيخ.

ـ قل بحق عبد القادر الجيلي هل تبصر الآن؟

ـ أبصر ما لا تبصرون.

ـ اذن تحدث، يا سامري؟

ـ قلت كل شيء.

مرَّ سكيران من تحت نافذة رويح الأعمى في الليل وسمعاه يردد

ـ " روحه روحي،

وروحي روحه ،

نحن روحان دخلنا بدنا".

همس أحدهما في أذن الآخر، ضاحكاً:

ـ رويح سكران الليلة.

## 19

**كـدخان في الـريح، كصـياح ديـك ينتـف ريشـه، حيـاً، كانـت صرخات تصعد في الليل من مبنى دائرة الأمن، صراخ رجل يُنزع جلده بقسوة في مهرجان عري للوحوش أو الضواري.**

**ـ قل لنا ما هو اسمك الحقيقي؟**

**ـ رويّح عاشور.**

**ـ والسامري؟**

**ـ لقب.**

**ـ من منحك إياه؟**

**ـ الذي لا ينام.**

**صرخ ضابط الأمن:**

**ـ القارصة الكهربائية، حالاً.**

**كشخص وضع في ماء ساخن أو في فرن، حياً، بدأ رويح يجأر كثور نصف مذبوح.**

**ـ من منحك اللقب؟**

**ـ أنا نفسي.**

**ـ وحكايات سويق وبليق التي تهذي بها؟**

**ـ حكايات عن نبوءات الجن؟**

**ـ ما هو مصدرها؟**

**ـ "الحاكم في تاريخ نيسابور". أصل الحكاية يا سيدي إن إبراهيم بن عبد الله السعدي يقول: صعدت إلى المئذنة لأؤذن، فوقفت أنتظر الصبح، فإذا شبه كلب في ناحية الري يستقبله مثله من الناحية الأخرى. فقال أحدهما للآخر: سويق. فقال الآخر: بليق. فقال: إيش الخبر؟ قال: توفى الليلة أمير**

المؤمنين.فنزلت، فبكيت. فإذا هارون الرشيد قد مات في تلك الليلة.

قال ضابط الأمن:

ـ إتركوه. انت تعمل معنا منذ الليلة واسمك الحركي هولاكو.

جفل رويّح كالملدوغ:

ـ أعوذ بالله.

ـ اذا لم يعجبك الاسم غيره.

قال رويّح وهو يحدق في فراغ السقف:

ـ أفضّل منصور الحلاج.

# 20

**من قتل الأرملة؟**

**هـذا السـؤال حيرّ البلـدة  هـذا الاسـبوع وزاد مـن الفوضـى القائمة،المتناسـلة، المتشـابكة. لم تكـن مديحة الأرملـة معروفـة بما فيه الكفاية خارج الحي العتيق قبل أن يعثروا عليها مقتولة طعنا بالســكين في مواضــع مــن جســدها، كمــا أظهــر الكشــف في مستشفى الطب العدلي آثار عض بأسنان بشرية بعضها قديم وملتئم وبعضها مازال طرياً.**

**لم تتحدث السلطات عن قتل أول الأمر بل عن وفاة طبيعية في السـرير بسـبب أزمـة قلبيـة لكـن مثل كـل الوقـائع الغامضـة انتشر خبر القتل على شكل مراحل حتى وصل إلى التفسيرات والتـأويلات الخطـيرة والمتشـككة. هنـاك مـن يقـول إن الأرملـة**

قُتلت من قبل جهاز الأمن بسبب علاقة جنسية بينها وبين مسؤول كبير في الحزب أو في الأجهزة السرية لتجنب فضيحة وشيكة.

هناك من يقول إن الأرملة تحوّلت في السنوات الأخيرة، تحت الترويض والتخويف، على مراحل، إلى عاهرة عادية في سوق الدعارة بعد أن صارت جارية في قصر رجل مهم في الدولة في مكان ريفي منعزل على الضفة الأخرى من النهر، وكان القصر محاطاً بالحراس والأسلاك المكهربة وعدسات المراقبة ومهبط للمروحية.

اسلوب تلويث المعارضين للنظام مع عوائلهم استراتيجية معتمدة من قبل الأمن بناء على أوامر عليا وهو نوع من الاغتيال الأخلاقي الأقسى من السياسي، وعلى سبيل المثال، وضعوا مخططاً لتحويل أبناء وأحفاد سياسي شهير في البلدة إلى مخبرين بالنسبة للشباب، وتعهير الفتيات من باب التنكيل

**والتحطيم، من دون أن يجرؤ هؤلاء على البوح بذلك من أجل الحفاظ على المظاهر لكن الأجهزة لا تقبل بسرية التلويث بل تلجأ إلى الفضح السري والبطيء وغير المباشر.**

**أغرب خبر ظهر في تلك الفترة الرمادية الملتبسة يقول إن الأرملة قُتلت من قبل إبن الأخ الهارب غسلاً للعار، مما دفع البعض للنقاش حول مفهوم العار والغسل: ما هو العار؟ أليس الإرهاب عاراً؟ لماذا يكون العار في الجنس وليس في السياسة؟**

كان الجميع، السلطة وغيرها، ينحدرون إلى الهاوية ببطء، وغموض، وسرية. كثيرون صاروا ينتظرون لحظة الإرتطام القادمة بلا أدنى شك بصورة حريق أو زلزال أو كارثة أو حرب أو إعصار أرضي يحطم ويجرف كل شيء في طريقه.

**هل مديحة الأرملة ضحية أم عاهرة؟ هل هي شهيدة أم لا؟ من خرب من؟ هل العهر في جسد الأرملة أم في السلطة؟ أخبار في**

غاية السرية والحذر خرجت على نحو غريب تقول إن الأرملة كانت تُجبر على الرقص عاريةً حتى الفجر في قصر الرجل المسؤول في الضفة الأخرى للنهر. لكن المداهمات الأخيرة والحواجز الأمنية المتجولة المباغتة على الطرق الخارجية ضاعفت من التشوش والحيرة والفوضى.

كانوا يجمعون أصغر التفاصيل عن إبن الأخ الذي تعرف البلدة انه في السجن منذ سنوات، وربما يكون شُنق أو أُعدم أو مات فيه. لكن من يفهم شروط هذه اللعبة المجنونة التي صار فيها الجميع خاسرين، ضحايا وجلادين؟

في الليلة الفائتة مرَّ رجل الأمن الشهير غازي الشريك في كل الحملات والمداهمات، راكضاً، في شوارعِ الحي العتيق، مطارداً من قبل شخص ملثم الوجه توقف قرب العجوز ثجيل ليسأله عن الطريق الذي سلكه رجل الأمن الهارب.

شعر ثجيل بملاك الموت يلامس روحه وأطرافه تختفي أو تتلاشى في الليل كدخان المنازل، عندما اقترب منه الرجل الملثم.

قال ثجيل، مذعوراً:

ـ من؟ جبر الكاطع؟

كعمود من النار أو الملح، ظل العجوز ثجيل، واقفاً، في الشارِع حتى بزوغِ الغبش الأزرق مع أنه كان حاضراً عندما وضعوا التابوت في القبر في عز الظهيرة.

# 21

كصاعقة أو نيزك هبط هؤلاء الأشخاص على البلدة مع انها لم تعرف هذه النماذج في الأقل بهذه الصورة. هؤلاء هم: سرحان حفار القبور،ريم العرافة، ديگان الجلاد. وجانيت القوادة.

عاد سرحان الليلة الماضية من المقبرة الكبرى البعيدة بسيارته المارسيدس البيضاء المرفهة. عندما دخل الشارع، هرع الأطفال والنساء خلفه، لأن سرحان ليس دفاناً في الحي العتيق فحسب بل هو حكواتي حكايات غريبة تقع دائماً في المقبرة عن موتى ينهضون من القبر، أو حوادث اغتصاب للنساء من قبل شياطين شريرة في المقبرة، أو عن مخلوقات غريبة صارت

تنام في المقبرة الخاصة بالاغنياء رغم قرارات المنع والمراقبة والدوريات التي تجوب مقبرة وادي السلام في الليل والنهار.

روى مرة، بعد التأكد من غلق الأبواب والنوافذ والحضور، حكايات غريبة عن موتى لم يسبق له أبداً أن شاهد مثلهم من قبل مربوطي الأذرع والأرجل أو محشوة أفواههم بالقطن ومغلقة بشريط لاصق قبل أن يُطلق عليهم الرصاص، وغالبية هؤلاء من ضحايا مجزرة قاعة الخلد في تموز عام **1979** لمنعهم من قول الحقيقة لمفارز الاعدام المنتقاة من الرفاق.

لكنه تحدث عن ظاهرة جديدة وهي ان هؤلاء القتلى صاروا يدفنون في مقابر جماعية صحراوية أو في أحواض تذويب في نهاية تجارب تجرى عليهم للأسلحة الجرثومية وغيرها كحيوانات تجارب.

أما جانيت فقد أوشكت أن تكون في بعض أيام هذه الفترة الرهيبة، بتعبير أحد شعراء البلدة، الحاكم الفعلي هنا، بل

صارت تلقب بالسيدة جانيت بعد أن تلاشت أسطورة رويّح السامري ونافذته المغلقة على الليل والشارع والمطر والريح، جانيت هي المنقذ من كل الأهوال والمخلّص الوحيد من اليأس والذعر والموت المرتجل.

زوجات وأمهات وأخوات وآباء انتقلوا من حلقة الدراويش ونور رويّح السامري إلى منزل جانيت الضاج بالعطور والفواكه والموسيقى والأطعمة الفاخرة والمكالمات الهاتفية مع شخصيات كبيرة سياسية ودينية وثقافية وحزبية وعسكرية.

هو زمن جانيت التي نسي الناس، مع الوقت والدوامة والفوضى والخوف، اسمها الحقيقي هو شكرية العطار إبنة بائع العطور والمرايا والإبر المتجول ودلاّل الحمير في السوق. كان يردد: (حمار حساوي أصيل)، لكن اليوم، في الدوار والعصف والاضطراب، لم يعد أحد يتذكر تاريخه الشخصي أو اسم أجداده وجيرانه في مهرجان عجيب للزور والموت والرعب.

كثر الزوار في الليل والنهار واختلط عليها الأمر، لأن هناك من يأتي للمتعة ومن يأتي للتبرك والصلاة ومن يأتي لطلب المساعدة أو النجدة أو من يسلم نفسه لها بدل الأمن أو الشرطة أو الجيش وتقوم هي بتسليمه مع رسالة توصية.

صارت الوجوه أقنعةً ولم يعد أي شخص يحمل وجهه الحقيقي، الناس والسلطة. هي حقبة نعيب البوم على حافة الهاوية والليل والغسق والذعر.

مع ظهور جانيت ظهر أحد أهم رموز تلك الفترة وهو ديگان الذي كان يلقب نفسه برأس الثور يوم كان عاطلاً ومشرداً وسكيراً، لكنه لمزايا تتعلق بالضخامة والاستعداد الفوري للقتل، مَرحاً، ولأميته المفرطة في القراءة والكتابة وفي السياسة وغيرها، عمل في مديرية الأمن العام، المقر العام، كمرافق للمدير وذراع له.

لم يكن ينافس ديكَان الرثع ، أي الدنيء،كما يُلقب، سراً، في الضخامة سوى ثلاثة مخلوقات: منشد الزنجي الذي قُتل في ما بعد في صراع على الأرض، وثور المعدان، وتيس ثجيل الذي ينتظر الذبح منذ سنوات في حال وفاة ثجيل التي تأخرت عن الموعد المتوقع كما يظن هو.

مع جانيت، صار ديكان قديساً جديداً يحج اليه الناس عند العوز والخوف والمساعدة بل صار صعوده البرقي وبيته الفخم موضع حسد بعض الناس، وصار رمزاً للذكاء والشجاعة والنجاح بعد انقلاب المعايير وسيطرة عقلية الشطارة، ومن المعتاد على أم مثلاً أن تؤنب إبنها وتذكره بمهارة ديكَان وبيته الجميل.

على ذلك علق الشاعر السكير حميد اليتيِّم:

ـ هذا أردأ الأزمنة.

هذا الشاعر صار اضحوكة في البلدة حتى وجد ميتاً في سريره، في حين كان المطر ينثال فوق عمود الضوء الشاحب، ودفن كفأر.

ديگان نفسه جلاد المرحلة، طُرد من جهاز الأمن بعد اشتراك مديره في محاولة انقلابية فاشلة في عام 1973 قيل كثيراً عن أن الرئيس نفسه يوم كان نائباً قد دبرها للتخلص من الرئيس العجوز الذي عُزل في ما بعد بالقوة واختفى هو الآخر حتى مات بصورة غامضة، لكن الذاكرة العامة تختزن الخوف من ديگان حتى بعد الطرد.

مع انطفاء نجم ديگان، بزغ، كنجمة الصباح، ضوء العرافة ريم عرافة بلاد الرافدين الجديدة، ويبدو ان حالة الغرق واليأس والذعر هي التي تخلق هذه النماذج من العدم، وساد خوف غير محدد من كل شيء ودخلت البلدة، بهدوء وانزلاق، في الزمن الأسطوري.

لأن النظام صار يمنع أو لا يشجع  وأحيانا يهدد الناس من طقوس دينية محددة، لذلك اضطروا إلى اختراع رموزهم حتى لو كانت الرموز على شكل جانيت أو ديگان للتشبث في هذا العصف والاقتلاع والانحدار.

ظهرت العرافة ريم في قلب الحي العتيق المبني من الطين والصفيح والطوب وهو الحي الأشهر بعد ظهور العرافة التي من النادر أن رأى أحد وجهها مباشرة، في زمن لم تعد فيه قيمة للوجوه في عصر الأقنعة، حتى اللغة صارت قناعاً ومنفى. العرافة تشفي من المرض، تجلب المطر، لكن الأهم من كل ذلك قدرتها الخارقة على تحديد مكان المختفي، وعما اذا كان حياً أو ميتاً، قريباً أم بعيداً، سيخرج أم لا.

صار الناس من الخوف والأمل واليأس يزحفون نحو بيتها في منتهى الحذر والاحتراس كجرابيع ليلية تخرج من جحورها على ضوء القمر. كانوا يروون لها هواجسهم ومخاوفهم وأحلامهم

وكوابيسهم بكل صدق وعفوية، من خلف حجاب أو ستار، لكن خبراً مجهول المصدر اندلع كإعصار مباغت يقول إن هذه العرافة هي في الواقع رجل من كبار ضباط الأمن في القصر، مما أدخل الناس في فزع رهيب.

هربت البلدة بكل ما فيها من اشجار وبشر وحيوانات وأعمدة كهرباء وحشرات وحقول ونجوم في كل الاتجاهات، بكل الوسائل العلنية والسرية، على الأرجل أو في السيارات، في الليل أو في النهار. لكن خبراً انتشر في الساعات الأخيرة مجهول المصدر مثل كل الأخبار والأسرار يقول إنها عرافة فعلاً لكن الأمن قد اعتقلها بناء على أوامر صادرة من سلطة عليا لسبب غير مفهوم، وقد تكون أُعدمت، حالاً، وحكاية كونها ضابط أمن ملفقة للتخويف والتشويه، ولزعزعة يقين الناس بكل شيء، ولكي تكون السلطة هي المرجع الوحيد في هذا البلد، لأن نظام

**العصابة لا يحتمل أكثر من قوة واحدة وتفسير واحد لكل شيء.**

**توقف الزحف نحو بيت العرافة مع ظهور ضريح لولي صالح هو في الواقع رضيع دفن في اطراف البلدة قبل سنوات وصار مزاراً بعد شيوع أسطورة الطفل المقدس وعطل البلدوزر الذي حاول تسويته بالأرض، الذي تبين في ما بعد أن العطل ليس ميكانيكياً بل هو خوف السائق نفسه. صار ضريح الطفل الإلهي شاغل الناس وتوارت حكاية العرافة وديكًان في بلد أول من خلق الرموز.**

**هو زمن الأرامل من كل الأنواع: أرامل لرجال مختفين في السجون، أرامل قتلى رصاص أو مشنوقين أو مخنوقين أو مدهوسين أو منتحرين، أرامل موتى نوبات قلبية في غير أوانها**

وبدون أعراض، أرامل قتلى اغماء في الطريق أو في العمل أو في الشارع، أرامل قتلى رسائل ملغومة أو مسمومة.

لكن ظهرت حالات جثث عائمة في النهر لرجال قتلى معصوبي الأعين أو مربوطي الأيدي والأرجل. موت من كل الأنواع.

أمام ضريح الطفل المقدس، كانت المناجاة والاعترافات جلية وصريحة بلا تورية أو غموض، لكن خبراً إنتشر يقول إن جهاز الأمن وضع لاقطة تحت ضريح الطفل المعجزة، وكان الناس مستعدين للتريث إلا كاظم مجيد الكاتب العمومي الذي كان يذهب خلسة لزيارة الضريح ولعن الرئيس بأفظع العبارات التي كانت تأتيه نتيجة الهام غامض، والذي ما أن سمع بخبر اللاقطة السرية حتى عبر النهر سباحةً في ليلة ماطرة وباردة بعد أن تخيل أن كل الطرق مغلقة بما في ذلك الطريق إلى النجوم.

# 22

- حريق، حريق.

صرخة شقت وجه الليل العاري من أقصى البلدة إلى أقصاها، ورغم المطر والريح تراكض الناس بعد الصيحة التي كانت صادرة من ضريح الطفل المقدس. كان الليل في منتصفه والريح لها شكل الذعر، وكان الناس بحاجة إلى حريق مرئي بعد حرائق كثيرة غير مرئية.

هي المرة الأولى التي يهرع فيها الناس للنجدة بصورة جماعية بعد أن صار كل واحد منهم يدافع عن أبوابه الداخلية وداخل غرف النوم والأحلام السرية والجلد.

الحريق هذه المرة في ضريح طفل التاريخ المقدس المكان الوحيد الذي يستحيل، في الخيال العام، وقوع حريق فيه، لكنه وقع على أية حال.

كان كاظم الكاتب العمومي قد عاد من الضفة الأخرى بعد أن اكتشف فيلاّت كثيرة ومهبط مروحيات وحدائق مسحورة وحانة صغيرة منعزلة وأبراج مراقبة وكلاب صيد وغيرها.

ذُهل من كل ذلك رغم أن المسافة بينه وبين البلدة لا تتجاوز عبور النهر، وكان هو يسكر في كوخ البولاني المقابل للضفة الثانية التي صارت منتجعاً للحزب الحاكم.

شعر وهو يصل الشاطئ كما لو ان الموج قذفه إلى جزيرة نائية ومعزولة، وبخوف وإثم لوجوده في مكان خاص رغم ان هذه الجزيرة كانت غابات مفتوحة للجميع طوال العصور قبل أن تُصادر كمنتجع خاص مثل كل الأشياء المصادرة.

كان كاظم قد سكن كوخ البولاني لكن في ليلة الحريق رغم السكر والنوم العميق سمع تلك الصرخة المخيفة من أقصى البلدة، وهرع مع كلب البولاني إلى مكان الحريق الذي وجده قد التهم الضريح والليل والغابات والظلام. فكر مع نفسه في أن هذا الحريق يشبه حريق الرايخستاغ الذي قرأ عنه في مجلة يوماً. عندما عاد إلى الكوخ، فطن إلى أقدام ناعمة تدوس العشب والاشواك. شم رائحتها في الهواء والحريق والليل.

ـ ما الذي جاء بكِ، الآن؟

قالت بهدوء:

ـ جئت أقول لك لا تخف. لا أحد يبحث عنك.

ـ وحكاية اللاقطة؟

ضحكت زوجة رجل الأمن وعشيقة الكاتب العمومي قائلة:

ـ كذبة أخرى.

ـ والحريق؟

ـ مثل اللاقطة والعرافة والساحر وغيرهم.

ـ لم أفهم؟

ـ حرقوه بأوامر لكني لا أعرف السبب.

تلك اللحظة شعر أن حواسه تتفتح وانه الآن أكثر قدرة على شم رائحة الليل والعشب والشاطئ والنباتات البرية والماء، سيطر عطرها الإنثوي عليه أكثر من كل الروائح. لمح في عينيها بريق أمطار قديمة، بريق الجسد وهو ينضج تحت النار واللوعة والشوق.

كان الكلب يحدق في الجسدين العاريين المتصارعين، ثم خرج من الكوخ ليعوي على الليل والأفق ورأسه نحو سماء بلون الرماد.

## 23

اختفى، فجأة، في الصباح، شارع فرعي في الحي العتيق وحلّ بدله جدار بعد أن صار ملحقاً بمنزل عضو حزبي في المنظمة، واختفى معه عمود الضوء، واختفت في يوم آخر أجهزة التلفاز الأبيض والأسود وظهرت جديدة ملونة كتب تحتها "هدية السيد الرئيس" لكن أكثر حوادث الاختفاء تلك الأيام هو اختفاء عائلة السيد موسى، وأبناء بائع عربة جوال لشراء الاشياء القديمة بتهمة العمل في حزب اسلامي.

كما في عالم الأساطير أو العصابات أو الكوابيس جاءت سيارة سوداء طويلة بعد منتصف الليل وكنست بالمعنى الحرفي الأسرة

**في صمت تام. تلك كانت أول مرة تختفي أسرة كاملة دون أي سبب واضح في الظاهر.**

**في أعماق الليل جاء إلى الكوخ، على غير توقع، ديكَان، في زيارة مفاجئة شكلت صدمة غير منتظرة.**

**قال وقد شعر بحراجة الموقف:**

**ـ أنت تعرف أن علاقتي بهم مقطوعة.**

**قال كاظم:**

**ـ هذه مسألة تخصك.**

**ـ هل تسمح لي بالشرب هنا؟**

**ـ تفضل.**

**حادث حريق الضريح أكثر الحوادث بالنسبة لكاظم مجيد غموضاً، لأنه الوحيد الذي لم يجد له تفسيراً مقنعاً، وكان يعتقد**

أن ديكَان وحده قادر على حل اللغز. انتظر اللحظة المناسبة بصبر وحرقة حتى ظهر السكر على ديكَان وبانت النشوة والارتواء.

قال كاظم يمهد الطريق:

ـ حريق الضريح خسارة.

ـ بلا شك.

ـ قد يكون السبب الإهمال أو الكهرباء؟

بان على ديكَان التردد والتفكير والتروي لأن السحنة المقابلة المتأملة غريبة عليه. قال:

ـ أعتقد أنهم زوار الفجر.

صدم كاظم لكنه سأل:

ـ ما الذي يدفعهم إلى ذلك؟

أجاب ديكَان بصدق وجدية:

ـ ممنوعٌ أي رمز مهما كان بسيطاً أو تافهاً وهذا رأي ناظم كزار المدير العام للأمن السابق الذي أُعدم.

فجر تلك الليل، لعلع رصاص فرح من الفيلاّت الخاصة على الشاطئ الآخر من النهر. مرق نيزك في الظلام الأخير لغبش أزرق شفاف. عوى ذئب بعيد كقلب يتمرغ في الوحل.

# 24

(لكثرة ما جانبت الوحش،

رائحته، الآن

تلتصق بجلدك)

ـ الشاعر والروائي عبد اللطيف اللعبي.

من ديوان: شجون الدار البيضاء.

*

يروي السيد الهاشمي مؤرخ البلدة الوحيد، إن هذه البلدة تأسست منتصف القرن التاسع عشر بعد أن قام رجل بفتح

دكـان تبـغ للبيـع للجندرمـة العثمـانيين الـذين قـدموا لجبايـة الضرائب ولوقف الطوفان، بعد أن كانت هذه الأصقاع مناطق غير مأهولة، غابية، خصبة.

نهاية القرن التاسع عشر دمرها طوفان نهر دجلة وانتقلت الى البلدة التي تعرف اليوم بالعتيقة التي صارت تحمل اسم الجديدة، وعاشت الكوارث والاوبئة والحروب على مر المراحل.

في بداية القرن العشرين سكن بعض الرعاة في هذه الأراضي السـهلية المعشـبة، وكانـت الغابـات عـامرة بـالطيور والـذئاب والنباتات البرية، وبدأت البلدة تتسع حول دكان التبغ، وبدل الأكـواخ ظهـرت بيـوت الطـين، ثم تم بنـاء ادارة محليـة تسـمى السراي تجمعت حولها بيوت نخبة من أهل البلدة الذين عملوا في السراي، وظهر شارع واسع قائم حتى اليوم.

ظهر شيخ وعبيد وقصر لا يزال موجوداً عند منعطف النهر نحو الجنوب وفي موقع مرتفع مطل على غابات ساحرة، ثم ظهرت

ماكنة طحن، وهدير سيارة مصطفى الترك الجندي العثماني المتخلي عن الجيش المنسحب، وفي ثلاثينيات القرن لاحت طائرة حديدية كانت معجزة تلك الأيام، وشاهد الناس، أول مرة، فوانيس معلقة في الشوارع تضاء في المساء وتُطفأ في الفجر من قبل عامل يسمى أبو الفوانيس، ستعمل والدة راوي هذه الحكايات خادمة في بيت ولده المعلم بعد واقعة المنشورات والحصار الخانق على الأسرة.

كانت الفوانيس معلقة في الشوارع الساكنة الآمنة كمصابيح معلقة في الفضاء الشفاف، كانت الأبواب مفتوحة للغرباء، ليلاً، لكي لا ينام غريب أو جائع أو عابر سبيل في الشارع قبل زمن الأيديولوجيا والعدو السياسي.

كان الدخول إلى منزل، يعني الدخول إلى المنازل المجاورة، لأن الجدران إما كانت عبارة عن حيطان طين واطئة أو من السعف والقصب والبردي.

كـان مـوت انسـان مأسـاة جماعيـة في زمـن الجـدران المتراصـة كلوحـة عاريـة عـن الطـين والضـوء والسـلم الأهلـي حـتى ان ذاكرتنـا، الآن، مطليـة بلـون الطـين، أولاً، ولـون ثيـاب الأمهـات الأسود، ثانياً، في كل المواسم.

لا ينبح كلب في أقصى البلدة دون أن يعرف الناس سر النباح، لا صرخة منتصف الليل عن موت أو ولادة أو تفجع أو فرح، لا يسمع بها الجميع، الموتى يظلون أحياءً في ذاكرة الأخرين، لم تعـرف البلـدة الجـوع بسـبب النهـر والنخـل والسـمك وحقـول البرية، لم تعرف الخوف ولا الخطف ذلك الزمن المنقرض الذي لم يعد حيّاً إلا في ذاكرة راوي هذه الحكايات المنفي وربما غيره من الحالمين بزمن عذري.

كان النهر يفيض هنا وهناك، فتخضر الأرض، تنتشر المراعي، تكثـر الأفـراح، تـركض العجـول الصـغيرة طليقـة في الـبراري مـع

الأمهار الفتية، تسرح وتمرح طيور وحيوانات البرية من وفرة الماء والطعام والأمان.

عرف الناس الموت الطبيعي، لكنهم لم يعرفوا الذل. النار واللبن والعشب والشمس علاج كل شيء، بل كان الموت سفراً وشرفاً وقدراً كضوء القمر وشروق الشمس.

كان الميت ساعي بريد إلى العالم الآخر.

في الأعياد ذبيحة لكل فرد. من لا يملك ثمن شراء ذبيحة، يتعاون الناس لكي يجد خروفاً في داره في الفجر. كانت الحياة عيداً صيفياً متنقلاً.

كانت الذئاب ذئاباً حقيقيةً وليست بشراً.

رغم كل ما حدث من تطور وعمران، لكن البلدة فقدت اليوم أهم عناصر الجمال والسلام وهو الأمان والحب والثقة. لم يعد الموت طبيعياً، بل صار قتلاً. رغم انتشار المصابيح على أعمدة

**الشوارع، لكن العتمة العميقة تسيطر في كل مكان بما في ذلك النفوس، في حين كانت فوانيس عارية جميلة كافية لاضاءة الزوايا بالنور العذب والجمال والظلال الحية.**

**الآن، ظهرت سيارة لاندكروزر بيضاء، من منعطف شارع، يسوده الصمت والترقب: هذه البلدة لم تعد بحاجة إلى حكاية قديمة أو إلى مؤرخ لأن الموت نفسه صار الراوي الوحيد في شوارع عارية من كل شيء سوى الشحوب والخوف والجريمة.**

# 25

ـ طاووس، طاووس.

دوت هـذه الصـيحة في أذن عـوّان الأخـرس كحجـرة مباغتـة في الظـلام، لـذلك أطلـق سـاقيه للـريح أو بـالعكس كما يقـال عنـد الحيرة، من دون أن يلتفت، لأن هـذه الكلمة هي آخر مفردات قاموس الحرب الأهلية السرية الباطنية الدائرة رحاها بكل الأسلحة منذ أعوام.

كلمة طاووس تعني الرئيس نفسه.

شـعر أن شخصـاً مـا يتعقبـه في كـل مكـان وانـه لابـد خلـف أعمدة الضوء، خلف صفصاف السدة الترابية، وراء كل حائط ونافذة، بل حتى تحت السرير عندما صار الناس يفتشون بيوتهم قبل النوم والكلام.

كان رويّح الأعمى ماراً  في السوق عندما همس شخص ما في اذنه:

ـ طاووس.

كوقوع طائر في فخ، فتح عينيه الفارغتين إلا من البياض السرمدي وشعر بأنفاسه تتلاحق وبدخان يطلع من جسده وانه سيطير أو يتبخر بعد تجربته في السجن. بحث عن مصدر الهمس فلم يعثر إلا على ضجة السوق المعهودة في الصباح.

خامره شك في أن يكون ذلك من هواجس الخوف وفكر في الذهاب إلى دائرة الأمن والاخبار عن واقعة الهمس العابر.

صار المواطن الصالح يعرف واجباته جيداً بمحض ارادته بعد أن بُرمج لكي يكون مسماراً في هذه العجلة الجهنمية. هل يمكن أن يكون جهاز الأمن نفسه على دراية بذلك الهمس بل من

تدبيره لإختباره؟ لكنه عدل عن ذلك في انتظار وقائع أخرى واضحة.

الواضح هذه الأيام، هو الأكثر غموضاً.

هذه الفترة تم استدعاء مواليد جديدة بعد نشوب حرب الخليج الأولى، وتوجه الرجال إلى مراكز التجنيد الذي وقف أمامه طابور طويل من الرجال يصغون إلى جندي يقرأ في قائمة أسماء مطبوعة:

ـ حمود الذرب؟ مسلح.

ـ كاظم مجيد؟ غير مسلح.

ـ عوّان خضر؟

ـ نع... نع... م.

ـ غير صالح للخدمة العسكرية.

ـ سالم الراضي؟ من يعرف سالم الراضي؟

ـ في السجن.

ـ عدنان البولاني؟

ـ متوفى.

ـ علي المشدوه؟ غير مسلح.

ـ كامل جسام؟ غير مسلح.

ـ فهد اسماعيل؟ مسلح.

ـ جلال عمران؟ مسلح.

ـ فالح حمد الشمخي؟ مسلح.

ـ رويّح الأعمى؟ غير صالح للخدمة العسكرية.

ـ مالك عبد الله؟ مسلح.

ـ عباس عيسى؟ مسلح.

**ـ عامر هجول؟ مسلح.**

**ـ ماهر حميد؟ غير مسلح.**

**جبر الكاطع؟ من يعرف هذا الاسم؟**

**ـ معدوم.**

**ـ كمال اللبان؟**

**ـ في السجن.**

**ـ وليد عبد الرحمن؟ غبر مسلح.**

**ـ غدا الساعة الثامنة احضروا للسوق. مفهوم؟**

**ـ مفهوم.**

**في أعماق الليل سمع كل من كان في كوخ البولاني، وهم أفراد "الشلة التعبانة" في حفل الوداع الأخير قبل التوجه غداً إلى**

**الشكنات، صيحة تائهة تحوم حول النهر كحبل مشنقة طويل في الهواء:**

**ـ طاووس، طاووس.**

**كصدى لأنين الأعماق الأرضية، نبع صوت من الظلام النهري الأسطوري من بين الأشجار جواباً على الصيحة:**

**ـ لكنه مخنث.**

# 26

في ماخور جانيت أو شكرية العطار كان الزمن يجري بصورة مختلفة تماماً بعد أن حمل هذا المكان اسماءً كثيرةً متنوعةً مثل: عش الغرام، دار السلام، بلاد عشتار، دار الأمان، خاصة بعد أن تصاعدت الحرب في الحدود الشرقية، لكن رجال الأمن أطلقوا عليه الوصف السري التالي " جدار برلين" لأن جانيت ولدت في 20 آب 1961 وهي سنة بناء جدار برلين. من يعرف؟

مع ان راوي هذه الحكايات لا يريد استباق الحوادث، إلا أنه يرغب في أن يضيف هذه الملاحظة: جدار جانيت مايزال قائماً حتى اليوم رغم سقوط جدار برلين الحقيقي الحجري، لأن جدار جانيت ليس من الحجر لكي يتداعى، بل هو من منظومة قيم

ومعايير وتصورات فاسدة. جدار برلين خارجي وجدار جانيت داخلي.

في هذا الماخور أو دار السلام الجديدة سقط، ميتاً، قائد عسكري كبير كان قادماً من خطوط القتال في اجازة لساعات فحسب، ومثل باقي الحوادث الغامضة انتشرت أكثر من حكاية وتفسير ووجهة نظر لكن أكثرها رواجاً تلك الحكاية المجهولة المصدر، كالعادة، التي تدعي إنه قُتل بناء على أوامر عليا بمادة قاتلة.

لمناسبة الكلام عن الراوي المجهول المصدر: هذا الراوي قد لا يكون فرداً بل مؤسسةً، وقد يكون بالفعل مجموعة رواة منزوين لتفسير الوقائع الغريبة التي لا تُفسر. السلطة تشترط اللامفسر أحياناً، لأنه الأكثر قدرة على التخويف من الواضح. الواضح لا يخيف كثيراً.

عادت من جديد حكاية جنود العسل التاريخية، وقبل أن ينساها الناس في دوامة الحرب، لمعت كبرق في الليل، حكاية علاقة شكرية العطار أو السيدة جانيت بالقصر الرئاسي. من هذا اليوم، ستصبح السيدة جانيت، ممثلة القصر السرية في نظر نزلاء هذه البلدة الغرباء عن انفسهم وعن أمكنتهم، صارت وسيطاً بين الناس وبين القصر في قضايا كبيرة مثل النقل من خطوط الحرب أو الترقية أو تخفيض العقاب من الموت إلى المؤبد أو العكس.

لم يبق لدى الأمهات غير صور بالأبيض والأسود ملتقطة بكاميرا قديمة عبارة عن صندوق أسود عجيب منصوب على قوائم تحمل صورنا القديمة بصماته الجميلة البريئة ودهشة التعرف على وجوهنا. أجمل ما في تلك الصور رائحة تلك السنوات، خلفية الأشجار، اللون الطفولي للأشياء والحدائق

والحيطان، صور مبتسمة، ضاحكة، بثياب ناعمة بسيطة كثياب ملائكة علب الطعام والحليب والحلوى.

صور لم يعد أفرادها في هذا المكان أو في أي مكان آخر معلوم: إما ذهبوا إلى السجون والأقبية والمقابر، أو إلى الحرب، أو الأسر، أو المصحات والمستشفيات، الليل، العزل، البراري، أو صعدوا إلى الجبل كبقايا الشيوعيين، أو الأوكار السرية، أو نزلوا إلى القيعان النفسية الداخلية وقايةً من هذا العصف والاقتلاع، أو هربوا إلى المنافي كما هو راوي هذه الحكايات الذي يحاول، الآن، انقاذ ذلك التاريخ من التشوه سواء تاريخ المرويات الرسمية الملفقة والمزورة، السرديات التي كان شرطي الأمن شحاتة العجلاوي يروجها في المقاهي والبيوت والشوارع، للإنتقام من الشرفاء والمناضلين الحقيقيين، في حين يتم التستر على المخبرين من خلال تسويق حكايات بطولية لتسهيل الاندساس، أو تلك السرديات التي كان أمن البلدة يسربها إلى

خليل المقاول الشيوعي الجالس، مخموراً، في الليل والنهار، أمام "بجغ" غلام كحيل العين في تسلطن عجيب، في حين يُقتل رفاقه في السجون أو في الجبال أو يموتون في المنافي، نزفاً واغتراباً، لكي يقوم هو بنفسه بنشرها بين جوقة من الباحثين عن دور وشهرة ومكانة بعد أن قام النظام بتمريغ رؤوسهم في الوحل في دائرة الأمن من خلال تواقيع التخلي الاجبارية عن الحزب والانتماء الفوري لحزب السلطة في قلب ساخر للأدوار.

عندما بدأت التوابيت تأتي من الجبهة الشرقية للحرب، صار ماخور جانيت رمزاً للجانب الآخر من الزمن: زمن صارت فيه جانيت شعاراً لدولة العرق والغابة والدم.

في مساء ماطر، كان راوي هذه الحكايات، قادماً من خطوط الحرب الأمامية في اجازة لإسبوع، يكتب، خلسةً، بعض فصول هذه الحكاية المخيفة، عندما دوت صرخة حادة كعواء ذئب

جـريح وأعـزل في بريـة مهجـورة مـن المطـر والعشـب والنبـع والضوء.

وصـل، تـواً، تـابوت مـن الجبهـة، هـذا المسـاء، وانهمـرت فوقـه أضـواء المصـابيح كتـابوت القصـة في محطـة القطـارات المركزيـة، تابوت النص، وتقدم منه، أيضاً، أربعة أفراد بملابس سود هذه المرة وحملوه إلى شاحنة واقفة، تحت المطر.

# 27

لم تكن تلك الزيارة مباغتة لجانيت وقد تمت بناء على موعد مسبق. جاء ثلاثة أشخاص من العاصمة بغداد في سيارة خاصة إلى دار السلام أو ماخور جانيت بعد توجيهات عليا مجهولة المصدر.

الأول: شاعر.

الثاني:روائي.

الثالث: رسام.

كان راوي هذه الحكايات موجوداً هناك كزبون، وفي زهو تلك اللحظة لم يفكر أحد بهذا الزبون المهمل، بل ربما تعمدت جانيت أن تبقيه كشاهد أو كاتب سيرتها الذاتية في المستقبل بعد أن صار التاريخ راقصة، وكتابته تتم في المواخير والأحزاب وفي

المقاهي والحانات، أي التاريخ الشفاهي المرتجل. جانيت العطار هي الوحيدة القادرة أكثر من غيرها اليوم على تغيير مصير الإنسان عندما صار حشرةً.

طبيعة شكرية أو جانيت هي الخصومة الدائمة بين الحرمان وبين الجاه، بين الإحتقار القديم وبين التوقير الجديد، بين المنبوذ وبين الكاميرا. هذه المرأة الطالعة من رماد عائلة مفككة، مهشمة، بائسة، لا تستطيع كنوز الأرض أن تنسيها لحظة واحدة تلك الأيام الرهيبة من طفولتها التى تعاقب عليها عشرات الرجال والصبيان والشرطة والقضاة والضباط والاطباء واللصوص والأحزاب السرية وحراس الليل، حتى صار جسدها الطفولي البض وليمة مفتوحة للجميع، لكن هذا الجسد نفسه سيصبح سلاحاً ومنقذاً من جهة، وأداةً للإنتقام من جهة أخرى.

كانت تباع وتُشتري لكل قادر على الدفع، ثم كل قادر على توفير الحماية، ثم كل قادر على توفير الخبز، وأخيراً كل من يملك خصيتين ويعاني من كبت أو نزوة. صارت مثل ملكية عامة كالمباول والحدائق والبراري، حتى تحرك جهاز أمن البلدة لكي يأخذ حصته من الوليمة. توظيف الجسد في السياسة.

كالعادة، تولى علي شحاته العجلاوي الخبير في صناعة السير وتلميع المخبرين وتشويه الشرفاء، في تأثيث سيرة جديدة لها كما حدث مع غيرها، ومع الرئيس نفسه: غيروا اسمها القديم الحقيقي لكي ينسجم مع تطورات هذا البلد الأخيرة. مات الاسم القديم إلا بالنسبة لشكرية العطار. ستظل تتذكر حتى الرمق الأخير جميع الذين عبروا جسدها، يوم كان جسراً، طفلةً، وصبيةً، وشابةً، وامرأةً، وأخيراً، مثل نهاية كل شيء عفن في هذه البلاد، قوادةً تتحكم في مصير الناس.

سواء كانت السيدة جانيت أو شكرية العطار، أو ماما جانيت عاشقة الفقراء، فهي في كل الأحوال ستَرغم كثيرين على دفع الثمن بصورة أو أخرى أو على المرور في الوحل.

قد يكون هذا هو اللّغز الذي جعلها تتجاهل حضور راوي هذه الحكايات الجالس، الآن، خلف النافذة، يراقب سقوط الثلج فوق المداخن، في المنفى. ربما توقعت، بحدس أنثوي داخلي نظيف، انه سيكون الشاهد الوحيد، يوماً، على طريقتها في اذلال هؤلاء.

كان الشاعر، بناءً على تعليمات واسئلة معدة سلفاً، قد ابدى رغبته في معرفة تاريخ اهتمامها بالشعر والتصوف والموسيقى والفلسفة الأخلاقية والرسم وخاصة لوحة الفنان الفرنسي كلود مونيه" انطباع شروق الشمس" التي ستصبح بعد

**سنوات في المنفى غلاف رواية لسارد هذه الحكايات بعنوان" طريق الكراكي".**

**أما الروائي فقد أوشك على قتلها عن جهل عندما طلب منها أن تسرد له بالتفصيل سيرتها العظيمة وموقفها من هذه الحرب المقدسة، ولو تطلب الأمر جلسات في أزمنة مختلفة، وعلّق، قائلاً:**

**ـ أتصور أن الزمن القادم سيكون زمن جانيت.**

**علّق الشاعر:**

**ـ لكننا دخلنا هذا الزمن فعلاً.**

**الرسام الصامت والمتأمل فاجأ الجميع وجانيت بالذات عندما قال:**

**ـ ثمة شبه مدهش بينك وبين نفرتيتي.**

غادر راوي هذه الحكايات ماخور جانيت وهو يلتقط الهواء بأصابعه، وفي الشارع شاهد عقيداً في الجيش ينزل من سيارة جيب عسكرية مطلية بالطين والوحل وشبكة الغش وينفض بدلته من تراب الحرب ويتقدم نحو الماخور.

## 28

كان الشاطئ خاوياً، مهجوراً،في هذا الخريف الشاحب المحترق بالحمرة والذبول الآسر، إلا من الكلب المقعي أمام باب الكوخ، منتظراً، كالأمهات عند عتبات البيوت الكئيبة.

من أقصى نقطة من الشريط النهري، في أول الغسق المسائي، ظهر شخص ما بدأ يقترب، ولأن الكلب هز ذيله، فهذا يعني أن الرجل أحد رواد الكوخ الذي صار يسمى في التقليد السري المشفر حانة "الأحلام الهاربة" وهي تسمية البولاني قبل موته أو انتحاره.

كان القادم هو عيسى محمود غير المشمول بقانون التجنيد لأنه فوق العمر المطلوب، لذلك صار يتجول وحيداً، شارداً، فوق الشاطئ المقفر.

كانت حانة الأحلام الهاربة قد تركها أصحابها كما هي بدون ترتيب كما لو أنهم ذهبوا إلى المقهى هذا الصباح، حتى أن أعقاب سجائرهم ماتزال متروكة على الأرض وكذلك بقايا الخمرة والشاي والقهوة والطعام.

شعر عيسى أن كل ما يدور حوله صار ضخماً جداً، أكبر من القدرة على فهمه والعيش فيه، لكنه وجد أن هذه الفترة هي الوقت المناسب لتصفية الحساب مع البلدة. إنه الوجه الذكوري لجانيت أو شكرية العطار.

فكر وهو يتأمل النهر: إذا كانت شكرية العطار قد ثأرت لنفسها وعائلتها، فلماذا لا يستطيع هو، هو الأكثر مرارة، وأقسى من دفع الثمن، من أن يثأر لنفسه؟

في لحظات، استعرض حياته وبزغت صورة أمه في الغسق الرماني المتوهج الشاحب والمحترق، كما لو كانت الأحداث قد وقعت بالأمس القريب.

كانت أمه أجمل نساء البلدة في زمانها في سنوات الأربعينيات في القرن العشرين، وكانت صورتها وعطرها ومشيتها صورة أمرأة ضاجة بالجمال والطفولة والنظافة والصحة. كان هو الإبن الوحيد بعد أن طُلِّقت الأم وصارت تعيش على المساعدات والصدقات من الجامع أو من الجيران، كانت قد تمسكت بعفتها حتى أقعدها مرض غامض لكي تبدأ حكاية مريرة للطفل عيسى وللأم.

هنا توقف التاريخ وبدأت سيرة أخرى يصنعها الآخرون بعد منتصف الليل لأمه النائمة والمريضة تحت الحيطان أو تحت مظلات المحال تحت المطر في الحرب العالمية الثانية.

بلا مأوى، في البرد، كان ينام مع أمه المرتعشة من الحمى، لكن أقسى من الحمى والليل البارد، أقسى من الوحش والجوع، هو عالم السكارى منتصف الليل.

كانوا ينتزعون عيسى من حضن الأم رغم صراخهما في الليل الطويل الأصم، ويغتصبونها أمامه مرتجفة كعصفورة غارقة في الحمى والفخ.

إنها رعشة الخوف.

أنها حمى الإغتصاب.

في ليلة شتوية عاصفة غير قابلة للنسيان أبداً، بل هي آخر لياليه على هذه الأرض، والباقي ترف، ماتت أميرة عبد القادر الأم قرب جدار متآكل كأيامها وحلمها وصورتها وجسدها، ماتت تحت حائط مكتوب عليه بخط سريع مرتبك هذه العبارة التي محاها الزمن والريح والغبار من بعض الأطراف:" الموت للقتلة" الذين لا أحد يعرف من هم.

في الستينيات في المكان نفسه من الجدار، خط شخص ما بسرعة عبارة أخرى تقول: " أوقفوا القتال في الجبال" التي عجز الأمن عن محوها بعد محاولات متكررة وصبغ جديد لكنها تظهر بعد المطر.

بعد قرابة ربع قرن على هذا الشعار اللغز سيلتقي راوي هذه الحكايات مع صاحب الخط في المنفى السويدي ليعترف له عن لحظة كتابة الشعار أيام القتال في الجبال: إنه محمد النهر الشيوعي زوج السيدة رسمية جبر الوزني التي اختفت في سجون

النظام عام 1984 وأُعدمت في تشرين الثاني 1986 ودفنت، سراً.

كعصفور بوغت بخراب العش، راح عيسي الطفل يركض في شوارع البلدة النائمة، تحت المطر، صارخاً، لكن أحداً لم يسمعه حتى اليوم رغم مرور عشرات السنوات على تلك الليلة المشؤومة الحاضرة في ذاكرته كجرح مفتوح.

مثل شكرية العطار أو جانيت، راح عيسى يعيث فساداً في البلدة، يغوي أجمل النساء حتى لو كلفه ذلك حياته، ليس الأجمل بل الأشرف كتعويض عن تلك الليالي قرب جدران خرساء إلا من الشعارات السرية الممنوعة.

غادر حانة الأحلام الهاربة أو الكوخ وكان الكلب قد بدأ يعوي على القمر الطالع من خلف غابات النهر.

بعنوان مثير ظهرت مقابلة مع جانيت في جريدة مركزية في صفحة التحقيقات جعل عوانها قلب جانيت يجفل، هلعاً. العنوان هو: "سيرة ذاتية للسيدة المناضلة شكرية العطار".

لكن ما هو أخطر من العنوان، المقدمة التي توحي بسيرة قديسة برزت من الاضطراب من معابد عشتار المنقرضة، بل أن المقابلة تعلن صراحةً الصلة العميقة بين شكرية العطار وبين ملكات نفر وأور وبابل وأريدو.

أبعد من ذلك قال الكاتب أو المؤلف المختفي هو الآخر ربما خلف اسم مستعار إن الأرض التي انجبت كلكامش ليس من الصعب ان تنجب شكرية العطار وغيرها في سنوات المخاض والابداع والخصب والولادة الجديدة. لكن غير المفهوم هو الربط بين سيدوري صاحبة الحانة البابلية التي حاورها كلكامش الضائع الباحث عن سر الخلود، وبين جانيت أو شكرية العطار، في زمن يمكن الربط فيه بين كل الأشياء المتناقضة.

**بعد المقدمة التاريخية، تأتي المقابلة:**

**ـ سيدة شكرية كيف كانت البداية؟**

**ـ الهام غامض بعد رؤيا منام للرئيس.**

**ـ الولادة، الإنتماء؟**

**ـ الولادة الحقيقية هي بعد الانتماء للحزب.**

**ـ أجمل ما في طفولتك؟**

**ـ كتب الحزب السرية.**

**ـ يقال إنكِ عشتِ مرحلة تصوف؟**

**ـ كانت مرحلة بحث عن يقين.**

**ـ سر تعلق الناس بكِ؟**

**ـ الحب، الشرف، الصدق.**

**ـ وسر تعلق جنود الخطوط الأمامية بكِ؟**

ـ حب مشترك.

ـ عدا كتب الحزب، ما هي اهتماماتك الأخرى؟

ـ الموسيقى الكلاسيكية مثل موزارت، بتهوفن، جايكوفسكي، باخ، شوبان. أما الشعر، فأقرأ للجميع من ايلوار إلى محمود درويش، ومن بول فاليري إلى السياب... الخ.

ـ والرسم؟

ـ أعشقه بلا حدود من بيكاسيو إلى جواد سليم، ومن فان كوخ إلى كلود مونيه.

ـ ومايكل أنجلو؟

ـ ليس كثيراً لأنه شوّه المقدس في رسم صور الملائكة عاريةً في الكنائس.

في مخازن الأسلحة والذخيرة في الثكنة، كان كاظم مجيد يقرأ في الجريدة المركزية المسموح بدخولها، عندما قرأ المقابلة مع شكرية العطار وأُصيب بخبل حقيقي. أما راوي هذه الحكايات الذي كان في الخنادق الأمامية، وقرأ المقابلة، فقال مع نفسه إن هذه المقابلة هي صورة حقيقية لهذه الحرب وهذا الزمان تعكس جانيت فيه أهم وجوه الإضطراب.

أما صاحبة الحانة والماخور والأسطورة وحفيدة كلكامش، القائمة من الرماد كالعنقاء، فقد كانت تجلس في أقصى الغرفة المرفهة في ركن منعزل ومضاء اضاءة ناعمة وشاعرية هادئة، في الليل، قرب جدار برلين العراقي، الصلب، الخرافي، باكيةً، مرتجفةً، وجسدها يصرخ بالموت المقترب الذي تشعر به الأضحية قبل الأوان وترتجف.

في هذه اللحظة، شعرت بخطوات تقترب من الباب بإيقاع هادئ، مطمئن، رصين، واثق، وعلى ضوء مصباح الشارع الشاحب، رأت، كما في المنام، شخصاً يدخل غرفتها بقامة شبحية تنعكس ظلالها على جدران الغرفة، ورأت كما ترى الهاوية، مسدساً يقترب من صدغها بكل بطء وثبات وبرود.

حشرجت شكرية العطار للمرة الأخيرة بلهجة جافة ويائسة:

ـ تأخرتم طويلاً.

# 29

سيطر خبر مقتل جانيت أو شكرية العطار على كل شيء بما في ذلك أخبار الحرب، وعلى طوابير توابيت القتلى المتدفقة من مركز تسليم الجثث القريب من البلدة.

بما أن جانيت كانت حاضرة في كل شيء، فإن خبر موتها الفاجع والغامض قد ضرب أذهان الناس بالشلل لفترة غير قصيرة.

أكثر الهواجس خوفاً هو الشعور الخفي المريب في أنها قُتلت من قبل قوة غامضة، خفية، هذا على الرغم من أن جملة بالخط الأحمر بفرشاة صبغ قد وجدت على جدار جانيت بخط صريح

وواضح يقول: "اليوم جانيت وغداً رويّح الأعمى ـ التوقيع: جبر الكاطع".

لكن اليوم المثير هو يوم دفن شكرية العطار الذي سيظل حديث الناس في هذا الزمن الذي أطلق عليه راوي هذه الحكايات في المنفى بـ " زمن البرابيك"، في حين أطلق عليه آخرون لقب" زمن جانيت" وهل من فارق؟

وضع النعش ليس كما توضع النعوش في الحرب والفوضى والاختفاء والرعب وسط حديقة المنزل رغم رذاذ المطر الناعم الذي أضفى مسحة من الكآبة الحقيقية على هذا الكرنفال الساخر كما لو انه من صنع مهرج، وقد وضعت على النعش الزهور التي نسي الناس وجودها، وصورة كبيرة لشكرية معدلة تلوح كقديسة أو شهيدة قبل سنوات الجاه، تبدو فيها طفلة بريئةً وصافيةً.

تلوح الصورة متناقضةً مع مشهد التبجيل المصطنع الذي يحيط بالنعش لأن هذه الصورة كانت شاهداً على حكاية أخرى مختلفة عن طقوس ومطر الحديقة ومراسم الحزن.

كانت الصورة بعبارة أدق تعكس مأتماً قديماً وإغتيالاً أقدم. لكن الصورتين تعكسان وجهاً واحداً من زاويتين بلا شك: وجه للاغتصاب وآخر للقتل، لذلك بدا أن الميت ليس شكرية العطار بل البلدة، لأنها لم تعد امرأة بل صورة مرحلة في هذه الحقبة العجيبة من تاريخ عشتار الجديدة.

في المقبرة الكبرى، إلى جانب قبور قتلى الحرب وقبور قتلى السلطة، في مساواة لا تتوفر إلا في عالم القبور، دفنت شكرية العطار في يوم ماطر وكئيب في المقبرة التاريخية الكبرى.

دخلت البلدة في ذهول جديد: كيف يمكن لجبر الكاطع أن يكون قاتلاً وقتيلاً؟ ومن كتب على الجدار تلك الجملة المهددة؟

وهل سيكون رويّح الأعمى هو الضحية المقبلة ولماذا؟ من يقرر ذلك؟ هل يمكن ان يكون الأمن وراء الأمر؟

في هذه الأيام عُثر على جثة رجل أمن مقتولاً ومرمياً في النهر، وفي الليلة نفسها إختفى طبيب المستشفى المركزي وهو في الطريق لزيارة صديق بناء على موعد، لكن الانشغال الأكبر كان مصير رويّح الأعمى الذي وصله الخبر في الجامع يؤدي الصلاة وردد في نفسه، متضرعاً" اللهم لا تجعلها الصلاة الأخيرة" ثم صلى صلاة الخوف.

عندما رفع رأسه، خيل إليه أنه يرى شبحاً معتماً بينه وبين النور ولم يكن تلك اللحظة قادراً على فهم كل ما يدور حوله بعد عطب الحواس التي تجعل الصور والوقائع بأحجام مختلفة كبيرة أو صغيرة، عكس حقيقتها الأصلية.

**مـرَّ في خـاطره كمـا في المنـام أو الحلـم أن ملاكـاً يناديـه وقـد إقترب منه كثيراً تلك اللحظة المباركة الملهمة.**

**مد يده لينهض، لكن يداً قريبة منتظرة أخذته برفق، وشعر أن عطراً مقدساً قـد نفـذ إلى روحـه القلقـة، ولم يخامره أدنى شـك في قدسية تلك الروح لذلك لم يسأل.**

**همس بكل ورع ونشوة:**

**ـ ملاك أم ولي صالح؟**

**رد عليه صوت من أعماق غابة معتمة او كهف منقرض:**

**ـ مفوض الأمن عبد عون.**

# 30

**( من فرط التفكير بالخلود،**

**تركنا الغسق يطبق دون أن نشعل المصباح).**

**ـ لويس بورخيس.**

*

**ـ صدناه.**

**عندما أُنزل رويّح الأعمى من السيارة البيضاء، شعر كما لو أحداً قذف به من الطابق العاشر أو أنه ينزلق نحو هاوية أويتزحلق فوق أرض جليدية زلقة أو يحلّق في الفضاء.**

يظهر انه أُصيب بالعمى شبه الكلي يوم كانت الطوابق تصل إلى الدور العاشر في بغداد، وقد يكون هذا هو السبب الذي يجعله يتصور أن ارتفاع كل كارثة وعمارة هو عشرة طوابق.

قبل أن يصل، طافوا به عدة شوارع، ولم يكن على هذه الدرجة من اليقين من قبل كما هو الآن في معرفة كل منعطف وشارع في البلدة.

لكن مكاناً واحداً لم يستطع أن يميزه بسهولة بل لم يميزه أبداً وهو شارع الأمن لأنه الشارع الوحيد في عالمه الذي يفقد فيه الباقي من وعيه وتوازنه وحواسه بما في ذلك حاسة الشم.

عندما هبط إلى الأرض، بعد دهور من قفزته، ظل خلالها محلقاً في تيه ضبابي عميق، سمع صرخة آمرة توقع أن تكون من صرخات أهوال يوم القيامة:

ـ خذوه.

تلك اللحظة شعر بلسان تنين بارد يلحس أنفه وشفتيه ورجليه وجلده، ولم يساوره أدنى شك في أن هذا المكان هو فرن أو هاوية أو حوض تيزاب لتذويب الإنسان، يتحول بعدها إلى بخار أو أي شيء آخر، لكنه ليس إنساناً أبداً.

مرَّ في خاطره هاجس غريب في أنه أنتقل إلى العالم الآخر، وهذه ليلته الأولى في القبر. قرأ قوله تعالى:(حتى إذا جاء أحدهم الموت قال ربي أرجعون، لعلي أعمل صالحاً فيما تركت). تذكر أيضاً تحت شعور بضغط القبر ما قرأه من أهوال ليلة القبر وكيف أن الميت يُسأل بعد الدفن.

توقع أن يصل الملكان، المنكر والنكير، وردد بورعٍ وخوف وخشوعٍ:" اللَّهم نجني من فتنة الدجال، وعذاب القبر".

خيل إليه أن صوتاً يسأله:

ـ من هو ربك؟

**ـ ربي الله.**

**ـ ما هو دينك؟**

**ـ ديني الإسلام.**

**ـ ما عملك؟**

**ـ قرأت كتاب الله.**

**انتظر أن تُفتح له باب الجنة، وشم رغم عطب الحواس، رائحة عطر ملائكي وتوقع أن الصوت القادم سيكون: "إبشر بالذي يسرك" لكن صيحة بشرية أرضية اخترقت عالمه الطيفي، بلا عطر سماوي، ولا فردوس. هل اخطأ الطريق ومضى إلى جهنم؟**

**ـ خذوه.**

**بكل قوة وعيه البشرية الباقية، وذاكرته المتلاشية، تذكر قول السعودي:" أتدرون ما غساق؟ قالوا: لا. قال: عين في جهنم تسيل إليها حمة من حية أو عقرب أو غير ذلك، يؤتى بالآدمي**

فيغمس فيها غمسة واحدة، فيخرج وقد سقط جلده عن العظام، ويعلق جلده ولحمه في كعبه، فيجر لحمه كما يجر الرجل ثوبه".

بين الصيحة وبين الإنتظار، عاش رويّح الأعمى، بفعل الهام سماوي مباغت، حالة من الصفاء كماء بارد في صيف عراقي مهلك وقائظ، لا تشبه اية حالة صفاء سابقة، ربما إلا مرة واحدة في حالة صلاة ونشوة في ليلة القدر.

فكر في انه قد يكون مقبلاً على مفاجأة كبرى، قد تكون معجزة ربانية بكل يقين. كان قد صار، الآن، هو المحمول على الأذرع، جاهزاً لتلقي البركة المقدسة، عندما سمع الصرخة الحادة الآمرة من جديد:

ـ عرّوه.

بين المنام واليقظة والكابوس والحلم، شعر السامري، تحت الوجد الصوفي والشوق والنار الداخلية الملهمة والدفوف والعشق والتجلي، بما يشبه عنق زجاجة يمرق في مؤخرته مروق الخاتم في الإصبع.

عندما استيقظ على حقيقة الوضع، كان الأوان قد فات. حشرج بصوت بهيمة تحتضر:

ـ بيرة؟

سألوه:

ـ ماذا قلت؟

ـ قلت بيرة؟

ـ ومن نوع فريدة مثلجة. هل تعرف لماذا تستحق هذا العقاب؟

ـ لا أعرف.

ـ لأنك ترفض التعاون معنا وعقابك هو التشهير بك كمخبر لنا.

ـ خجلت من نفسي.

ـ لماذا حملت اسم منصور الحلاج؟

ـ سمّاه أشياعه في البصرة المخبر.

ـ لماذا هذا الإسم؟

ـ غلب عليه الوجد.

ـ من قتل جانيت؟

ـ لا أعلم.

ـ ماذا سمعت؟

ـ كنت أصلي.

ـ هل قالوا لك إنك الضحية القادمة؟

**ـ أعرف.**

**ـ حدثنا عن شيخ الجامع؟**

**ـ مسكين وطيب.**

**ـ من هم زواره؟**

**ـ لا أعرف والله.**

**ـ وموقفه من الحزب؟**

**ـ لم يتحدث في السياسة.**

**ـ وزيارات الجنود له؟**

**ـ أدعية وتعاويذ.**

**ـ ماذا عن التنظيم السري؟**

**ـ لم افهم.**

**ـ برأيك ما هو اسم التنظيم؟**

**ـ صدقوني لا أدري.**

**ـ أنت من اليوم مسؤول الجامع السري، وستكون عضواً في فرقة خاصة.**

**ـ أية فرقة؟**

**ـ فرقة اختراق التنظيم السري.**

**ـ ما اسم الفرقة؟**

**ـ شليط.**

**صرخ رويح، مرعوباً:**

**ـ هذا جن. هل يمكن تبديله؟**

**ـ اذن شاحر.**

**ـ وهذا جن أيضاً.**

**قال له علي شحاتة العجلاوي بحقد واضح:**

ـ إختر احد هذه الأسماء: ماحر، حسا، مسا، أرقم، حاصر، الأدرس.

خرج صوته، مبحوحاً:

ـ هذه كلها من أسماء الجن.

ـ اذن شاصر وماصر ونيان والأحقب.

ـ وهي من اسماء الجن، أرجوكم.

ـ طيب نسميها فرقة خنزب. ماذا تقول؟

ـ روى مسلم إن هذا من أسماء الشياطين.

أجرى رويّح حساباته بصورة عاجلة وخمن أنه الجثة القادمة بلا شك. كل ذلك تمهيد. رأى جثته أمامه وهو واقف فوقها كما يقف الإنسان فوق مصيره الدامي.

في منتهى البرود، كمسرنم، نهض من مقعده، مشى في حالة خبل، وشعر رجال الأمن انه جن وهو أمر يحدث كثيراً في هذا المكان. أعلن طبيب خاص يعمل لصالح الأمن إن الرجل أصيب بنوعٍ من الجنون تحت صدمة عنيفة.

شعروا بخسارة لأن الجنون أنقذه من الظهور على شاشة التلفاز لكي يعلن على الملأ بأنه هو الذي أطلق النار على الرفيق الحزبي خليل حنون وان تفسير الانتحار ليس صحيحاً بعد اعترافات رويّح الذي لم يكن أعمى بصورة تامة، في تقليد جديد لإعادة الإعتبار للقتلى.

خرج رويّح من السجن أكثر حرية من ذي قبل وهو يردد في الطريق إلى المنزل في عمق الليل وسكون الشوارع وضوء المصابيح:

ـ سويق؟

ـ نعم يا بليق.

ـ إيش الخبر؟

ـ مات رويّح الليلة.

عندما سمعته امرأة من النافذة، علّقت، ضاحكة:

ـ رويّح الأعمى سكران.

# 31

كانت الوقائع تبدو لغرابتها وطابعها السريع المباغت كحكاية قديمة مروية من قبل شخص معتوه، والشكل الارتجالي هو الذي يتحكم في مسار الأحداث، والأهم هو الشعور العارم بالزوال والتلاشي الذي هيمن على الجميع، ومن يدري ربما ستقرأ الأجيال القادمة هذه الوقائع الغريبة كحكايات عن عالم الجن.

كل شيء عابر ومؤقت. أُزيلت شوارع وظهرت أخرى. قطعت رؤوس وبرزت أخرى. جففت مستنقعات وهاجرت طيور وماتت مخلوقات وهربت أخرى. جبال وسهول وصحارى تحولت إلى ثكنات. اختفت مقبرة الاطفال ومسحت من الوجود. تغيرت

الاتجاهات وصار الناس لا يؤمنون بقانون طبيعي أو وضعي. تبدلت معاني القيم والرموز والمبادئ في الصلاة والنوم والعمل والجنس والحب والصداقة. قد تعيش سنوات مع صديق أو جار ثم تكتشف، كراوي هذه الحكايات، ان هذا الصديق القديم أو هذا الجار العريق كان متلصصاً عليك للنظام الحاكم أو لحزب سري. تهشمت معاني النبل وصارت الشطارة سيدة الموقف.

قد لا يكون اختفاء المقبرة هو الشيء الوحيد الغريب في هذه الفترة، بل هو اختفاء القانون والنظام وايقاع الحياة والنغم السري الذي كان يعطي الاشياء الإستمرارية والثبات.

هذا الايقاع لم يعد موجوداً، وهو اللّغز الذي حوّل الناس إلى مخلوقات مذعورة لا تعرف في أي اتجاه تركض ولا لماذا وكيف؟

هذا الإختلال الذي ضرب الايقاع والزمن ونظام الأشياء هو الذي أنتج لغة سرية مشفرة جديدة عكس المتوقع.

ظهرت كلمة: برغش، وتعني رجل أمن.

وكلمة نمرود، وتعني الرئيس.

وكلمة داغر، ومعناها مسؤول.

والملصة، وتعني اللصوص.

في حين تعني الاقهبان بالجلاد. وبيرة تعني بيرة في الشرج في السجون.

كل شيء، حتى أشد المواقف والصور والحالات غرابة تبدو عادية، كظهور مخلوق غريب في الشارع، أو العثور على مشنوق في الفجر في الطريق إلى الفرن، أو الوقوف للتفرج لحظة واحدة على إعدام شخص ما على حائط بعد انتشار ظاهرة الاعدامات العلنية في الشوارع التي أُطلق عليها تسمية حفلات الإعدام بصورة رسمية.

ظهر في الحي العتيق ساحر ومنجم وشوّاف قيل إنه يمتلك قدرة عجيبة على جعل الانسان ينزع ماضيه ورأسه وذكرياته وجلده وعذابه كما ينزع ثوبه القديم.كان هذا الرائي قد أظهر حرصاً وسريةً للتخلص من رقابة الأمن. لا مواعيد منتظمة ولا علاقات واسعة، ولم يأخذ الكثير من المال سوى حق الملائكة كما يقول.

أما الطريقة المتبعة فهي: يدخل الشخص رجلاً كان أم امرأة إلى غرفة مضاءة بضوء ساطع عكس توقع المرء من غرف الظلام والبخور، وفي جو من الورع والاتقان والثقة يستلقي على ظهره بكل هدوء بمفرده أو صحبة من يشاء ثم يقوم الساحر بتدليك رأسه من كل الجوانب. في هذه اللحظة يطلب منه أن

**ينزع كل الأفكار والذكريات غير المرغوب فيها بينما يردد العرّاف:**

**ـ لا إله إلا الله.**

**ويُطلب منه نسيان ملامحه:**

**ـ هل نسيت ملامحك؟**

**اذا كان الجواب نعم، يقول العراف:**

**ـ هل نسيت اسمك؟**

**ـ لا.**

**ـ اذن ردد معي: يخرج الحي من الميت والميت من الحي. هل نسيت؟**

**ـ نعم.**

**ـ الآن حاول نسيان عنوانك.**

**ـ كيف أعود إلى المنزل؟**

**ـ معك مرافق. نبدأ؟**

**ـ نعم.**

**ـ قل أعوذ برب الناس. ملك الناس. إله الناس ... هل نسيت عنوانك؟**

**ـ نعم.**

**ـ هل تريد نسيان كلمات محددة الآن؟**

**ـ نعم.**

**ـ اذن كن صريحاً: ما معنى برغش؟**

**ـ الأمن.**

**ـ ونمرود؟**

**ـ الرئيس.**

شروط هذه اللعبة تتطلب موت كائن وولادة آخر للهروب من عالم واقعي فظ وشرس وصلب، لكن هناك حالات هروب كثيرة أخرى كالجنون المباغت والتقمص والانتحار والخمرة والهروب إلى الخارج.

تحول الناس إلى ظلال وأشباح في حين صارت الظلال والاشباح بشراً، صار الحوار بين أشباح متنقلة خائفة، الناس يلتقون في الشوارع بصورهم الشبحية، تحول المجتمع من كثرة الشعارات والصور والرموز والخطابات إلى مجتمع الوهم. صار الواقع وهماً، والوهم واقعاً.

دخلنا في الفرجة.

كان العرّاف يطلب من كل واحد منهم أن يهشم مراياه القديمة لأن هذه تحتفظ بالملامح الحزينة وينزع شكله كما ينزع

جوربه. الذين خرجوا من المرايا الجديدة قالوا إنهم لم يتعرفوا على أنفسهم. صار الواقع لغرابته شديد الكثافة كحلم معتق ومخيف.

الواقع نفسه تبدل: لم تعد الشجرة تعني شجرة بل تحولت إلى مكان للتلصص، عمود النور صار مخبأً، هناك بصاص في كل مكان.

ظهرت كما هو متوقع مفردات قاموس سري جديد:

- الهرهور ، وتعني النهر.

- البريط، وتعني الخمرة.

- البراجم، وتعني الأمن.

- إسرافيل، وتعني العرّاف.

إن صرخة "براجم، براجم" في السوق أو الشارع أو في الحرب تعني أن رجل أمن أو استخبارات يقترب. في الخطوط الأمامية في الحرب انتشرت مفردات كثيرة مشفرة مع ان مفهوم الخطوط الأمامية لم يعد واضحاً: كل خطوط الداخل، في الجامع أو الحانة أو المكتب أو الشاطئ، صارت خطوطاً أمامية بما في ذلك اللغة والحلم والطبيعة.

في خنادق الحرب الأمامية الموحلة في الشتاء هناك حرب أخرى تسمى حرب الاستمارات التي تفرض على كل جندي محارب أن يقدم سيرة مفصلة عن كل الأسرة وعن كل تطور جديد كإعدام أو هروب أو سجن أحد أعضاء الأسرة.

ـ الحل في البريط، يعني الخمرة.

أو:

ـ أجمل شيء عندي هو الجلوس عند الهرهور، يعني النهر.

بهذه اللغة المشفرة تدور أحاديث الجنود في الخنادق والمقاهي وفي محطات السفر وفي أسرّة النوم.

بجانب هذه اللغة السرية، ظهرت لغة سرية أمنية موازية لزيادة الكتمان والمباغتة والعمل الهادئ. طور الأمن لغة خاص أيضا مضادة. مع الوقت تضخم القاموس المشترك المتبادل، وتصاعدت المواجهة الصامتة، ولم يعد أحد يفهم أحداً في عالم الرطانة...الكل في منفى.

من قاموس الأمن السري:

ـ غراب، تعني المعارض.

ـ ثعلب، تعني المراوغ.

ـ نافذة، تعني العذيب بالربط على النافذة.

ـ خطوط جوية سويدية، تعني فلقة.

ـ نمر، تعني مطاردة.

ـ سفر، تعني التعليق في المروحة.

ليست هذه اللغة خاصة بأعداء النظام، بل شملت رموز الدولة وعناصر الأمن في القاموس الأمني الجديد المطور مثل:

ـ قارب، يعني السلطة.

ـ كرسي، يعني الرئيس.

ـ الأبهق، يعني ضابط الأمن.

ـ نحلة، تعني مخبرة.

ـ لبلاب، تعني "شرطي أمن انتهازي".

ـ لصقة جونسون، تعني المنصب.

بهذه الصورة ضاعت اللغة الانسانية وصار الناس يمشون في الشوارع كما لو من خلال جو راعش ومخلخل ومهتز.

يسأل رجل أمن، مثلاً:

ـ إلى أين ذاهب؟

ـ نمر، يعني إلى مطاردة.

## 32

كانت تلك ليلة نادرة في حياة كريم الدفّار الجندي القادم من الحرب في اجازة عندما قرر زيارة العرّاف الذي بهرته أخباره العجائبية وكان الدفّار قد صار مرجعاً لغوياً في الكلمات السرية المشفرة وكان يلجأ إلى القواميس القديمة للبحث عن كلمات جديدة لعالمه السري، ولكي يبهر العرّاف المختفي خلف حجاب بهذه المعرفة قال له عندما دخل:

ـ السلام على إسرافيل.

ـ وعليكم السلام. ما هي حكايتك ياولدي؟

ـ حكاية الجميع يا مولاي.

ـ اذن تمدد يا بني.

تمدد كريم الدفّار على السرير وبهرته الأضواء الدافئة وشعر بفيض روحاني يشع في داخله.

ـ أجبني صراحة.

ـ أمرك يا مولاي الجليل.

ـ من هو ربك؟

ـ الله.

ـ من هو نبيك؟

ـ محمد نبي.

ـ ما هو كتابك؟

ـ القرآن.

ـ من هو حزبك؟

ـ مستقل.

ـ يمني أم يساري، سابقاً؟

ـ شيوعي سابق.

ـ تخليت برغبتك أم لا؟

ـ بسبب زجاجة بيرة في الشرج.

ـ اخلع رأسك.

ـ خلعته.

ـ اخلع ارادتك.

ـ خلعتها.

ـ آدميتك.

**ـ خلعتها.**

**ـ من هو الهرهور؟**

**ـ النهر.**

**ـ من هو البرجم؟**

**ـ الأمن.**

**ـ من هو الأقهبان؟**

**ـ الجلاد.**

**ـ اذن اخلع قميصك.**

**ـ خلعته.**

**انطفأ الضوء فجأة وانتشرت ظلمة كثيفة عندما سمع الجندي العائد من خطوط الحرب الأمامية صوتاً خشناً، آمراً، كما لو كان يأتي من عالم بعيد يقول:**

ـ اخلع لباسك الداخلي.

تردد برهة لكي يسأل:

ـ قل لي بحق النبي من أنت يا مولاي؟

ـ مفوض الأمن عبد عون يا كلب.

في تلك اللحظة الجهنمية المسعورة وجد الدفّار نفسه، هارباً، من دون أي تخطيط واضح، في الخنادق الأمامية قبل نهاية الإجازة في انتظار معركة وشيكة منقذة من هلاك طويل، لأنه في خنادق الحرب يمتلك سلاحاً ورفاقاً وقراراً عن مصيره، لا أن يعثر على نفسه طائراً في مروحة في دائرة الأمن لكي يرى الغزالة كما في أراجيح الأعياد المنقرضة.

# 33

ساد ذعر جديد بعد اختفاء مالك عبد الله أحد أقرب أصدقاء راوي هذه الحكايات وقد كانا شركاء في كل المحن.عندما سجن الراوي عام 1970، كان مالك عبد الله مشبوهاً في نظر الأمن المحلي، وعندما بدأت الحملة على الشيوعيين والمستقلين أعوام 1978 و 1979 هربا معاً إلى بغداد واختفيا في أحد الفنادق خلف مقهى البرلمان في شارع الرشيد، وعند اعتقال الراوي المستقل، سياسياً، في 20 آيار 1979 في سراديب الأمن العام، كان مالك عبد الله قد قرر التخلي الإجباري عن الحزب وظل يحترق، لا هو مشتعل ولا منطفئ.

بعد اندلاع الحرب العراقية الايرانية عام 1980 كانا في الطريق الى الخطوط الأمامية. عندما وقع مالك في الأسر في ديزفول، هرب الراوي عبر حقول الالغام خلفه إلى ما يعرف بـ" العدو" بعد ضياع المعنى الحقيقي للعدو، وعاشا في المنفى" المعادي": مالك في أقفاص الأسر، والراوي في السجن، قبل أن يُحرّر ويهرب عبر الحدود، ثانية.

بعد أن عاد مالك من الأسر، ذهب الراوي إلى المنفى الجليدي... الخ.

تلك الأيام كنا نعاني من محنة الملتبس والرمادي والممثل والمهرج والغامض. كل شيء كان يساعد على لبس القناع، بل كانت الشوارع أقنعةً متنقلةً، والحوار ليس بشرياً، بل هو حوار أقنعة. لم تعد الارتيابية مشكلة نفسية بل يقظة الذئب الذي ينام، حسب خطاب متلفز للدكتاتور، بعين مفتوحة وأخرى

نائمة. لا قيمة للانسان بذاته وصفاته واخلاقه ومؤهلاته الفردية بل القيمة تأتي من وصف الآخرين، من التطابق والتماثل معهم وليس في الاختلاف. كلمة وصم أو دمغ مرتجلة تلصق بالانسان مدى الحياة. لا أحد يفحص. لا أحد يسأل في مجتمع الحوقة والتشابه.

*

العرّاف نفسه اختفى. هناك من يقول إن مالك عبد الله قُبض عليه من قبل الأمن وأرسل إلى وحدته العسكرية وقد شاع هذا التفسير بعد أن وقع في الأسر، لكن لا شيء مؤكداً في هذه المتاهة والدوامة والشك حتى أن مالك نفسه لم يعد يثق بأحد حتى باقرب الناس الذين عاشوا ظروفاً أسوأ بكثير من ظروفه

لأنه لم يذهب في أتعس الأحوال إلى التيه الاقتصادي والعوز المادي والبحث عن سكن أو عمل، لبقاء أسرته، متماسكةً، قوية، ومتضامنة، بجهود أب فلاح نظيف، في حين كان كثيرون، كالرواي، ينزفون من كل أنواع العوز والحرمان بصمت وكبرياء وبلا ضجة كطبع العصافير في الطيران وبناء الأعشاش: شجرة التفاح عندما تثمر لا تحتاج إلى إعلان ودعاية في مدن تضيع فيها الحدود الفاصلة بين السياسي وبين المهرج.

في هذه الفترة اصدرت السلطة تعليمات سرية باعتقال أي شخص يستعمل كلمات مشفرة ملغزة. صار الناس يشعرون بعراء مفتوح وموحش وضعوا فيه، وانكشاف عالمهم الداخلي، لذلك دخلوا أكثر في الأنفاق النفسية العميقة وحفر كل واحد مخبأً في القيعان البعيدة، في الغريزة والعتمة والخيال والطين

البـدائي، وهــرب إلى أعمــاق الكهــوف النفســية المســكونة بالوحوش والضباب والدم والتاريخ.

مثل كل الأشياء الجافة والناضبة، جف النهر في أمكنة كثيرة كما لو أن النهر قرر الإختفاء هو الآخر.

صار طعم الماء كطعم الدخان.

البراجم وحدهم في الشوارع.

## 34

ـ "عاد جبر الكاطع، افتحوا الأبواب"

هذه العبارة وجدت في الفجر على الجدران بما في ذلك جدار جانيت. كبرق في العتمة ظهرت هذه العبارة غير المتوقعة في تلك السنوات المخبولة. ظن كثيرون في هذا الطرف أو ذاك ان مقاومة سرية هي المسؤولة عن ذلك. لا فرق في هذه المرحلة بين شعار على حائط أو قنبلة. الوصول إلى حبل المشنقة أسهل من الوصول إلى غرف النوم أو المطبخ.

لكن كيف تنشأ مقاومة سرية في بلدة يسطر عليها ذعر مسعور مكتسح؟ هذه البلدة، فكر راوي هذه الحكايات،

قُذفت نحو مصير مجهول وأُغلق الباب عليها كما يحدث لمصارعي الأسود في الأزمنة القديمة عندما يقذفون إلى حلبة مصارعة الأسود الجائعة المستشرسة الجائعة وهم عراة إلا من الأظافر. تلك اللحظة الشرسة التي يجد الانسان الأعزل نفسه فيها،عارياً، وحيداً، أمام قوة باطشة، ولا مكان للإحتماء سوى جسده والجدران، وقد تخلى عنه العالم.

قُذفت البلدة إلى مصيرها بعد أن جُرّدت من كل شيء، من اللغة والصلاة والأمل والوعي والقانون والضمير والنوم والحلم والرغبة والضوء والنهار.

كيف يكون جبر الكاطع قد عاد من الموت بعد سنوات من الدفن؟من الميت؟ هل صار الموتى يشيّعون الأحياء؟ ظواهر غريبة: جلاد هارب من ضحيته الميتة، مدن تهرب من الخوف، أشجار ترتجف من التلصص، أهوار تجف، طيور تهاجر، جنود ينتظرون الخلاص في الأسر أو القتل أو الجرح.

شعرت فاطمة بالزهو والفرح: ألا يمكن أن يكون جبر الكاطع قد عاد فعلاً؟ في صباح عيد الأضحى، كانت مع حشد من النسوة في الطريق للسفر إلى المقبرة الكبرى في وادي السلام، عندما هبط من السيارة البيضاء الملعونة شرطي الأمن علي شحاتة العجلاوي وحاول أن يقدم لها باقة ورد مع عبارة علنية لكي تُسمع من قبل المارة:

ـ هذا تكريم للمرحوم الذي قُتل في سبيل الوطن.

ـ أي وطن؟

ردت فاطمة كذئبة مستثارة:

قال العجلاوي بمكر ناعم:

ـ وطننا، طبعاً.

ـ والتابوت؟ صرخت فاطمة.

ـ خطأ إداري وعوقب الفاعل.

**تلك الساعة شاهد المارة فاطمة تندفع نحو المنزل وتخرج منه وقد اشتعلت فيها النيران، راكضةً، في شوارعٍ رمادية صامتة، وهي تصرخ، مشتعلةً:**

**ـ جبر ما خان، جبر ما خان.**

**ظل صدى الصرخة يتردد في ذلك المكان لسنوات رغم أن المكان نفسه صار رماداً حتى يمكن سماع الصدى، الآن، عبر النافذة، تحت الثلج الهاطل في المنفى.**

.

# 35

ـ أرجوك لا تمت، الآن.

كان كريم الدفّار يحتضر في حضن الراوي منتصف الليل، تحت المطر والريح ودخان القنابل، بسبب شظية قاتلة في جهة القلب. مثل هذه المشاهد مرت كثيراً على الراوي، لكنه شعر بعجز حقيقي أمام الموت الزاحف في الأرض الحرام.

عندما مات في الفجر، بعيداً عن الشاطئ، وحيداً، كصقر في العراء الشاحب، وصلت برقية سرية من القصر الرئاسي تقول بالحرف الواحد:(إرسلوا لنا أسماء أسوأ السيئين لغرض إعدامهم).

علّق ضابط الاستخبارات على ذلك قائلاً:

ـ لو لم يمت كريم الدفّار اليوم، لمات بهذا القرار.

كان الراوي في تلك الساعات وقد سمع خبر البرقية القاتلة قد قرر الفرار إلى أي مكان إلا أن يموت كنعجة، لكن من يحدد هؤلاء "السيئين"؟ من هم؟ هم: السجين السابق، أو شقيق أو إبن المعدوم أو الهارب أو المستقل غير المرغوب فيه أو الذي يرفض أن يكون مخبراً أو قواداً لضباط الجيش وهي ظاهرة تكبر مع طول الحرب.

نجا كريم الدفّار هذا الفجر من قتل مؤكد، والشيء الأغرب من كل هذه الوقائع كونها تلوح كحوادث من عالم مختلف عن هذا الواقع الأسطوري المتقن الصنع على يد معتوه.

فكر الراوي في ان كريم الدفار كان قد انتحر في الواقع لأنه ترك نفسه في الأيام الأخيرة معرضاً للنيران والمخاطر بدون احتراس كأنه كان يمارس لعبة الفرار بالطريقة الوحيدة الممكنة بعد أن تم اغلاق كل الطرق بما في ذلك طرق الحلم والخيال

والسحر والتسكع والصلاة والأمل، لأن كل شيء صار يدار من منظمة غاطسة في السرية.

دُهش عندما أغلق عيني الدفار ليكتشف ان وجهه يشبه وجه الميت وانه يغلق عينيه بنفسه. لعبة مرايا. كانت وحدات الخطوط الأمامية ذلك اليوم مشغولة بإعداد قوائم الجنود المرشحين للاعدام من "السيئين" الذين كانوا، تلك الساعات، في الخطوط الأمامية تحت قصف المدافع وبنادق القنص، في الوحل.

كان هؤلاء محاصرين بين أنواع من الموت والقتل في خطوط حياة صارت كلها أمامية من الأمن الداخلي، الحزب، الحرب، الخوف، السجن. قبل أن يموت كريم الدفّار قال:

ـ أهرب.

عندما مات، بدا طليقاً مشعاً، شاحباً، شحوب شخص قضى وقتاً طويلاً في الركض المنهك، وظل وجهه عميقاً كقاع مرايا يعكس وجه الراوي المشغول هو الآخر بموته الخاص المقترب هذا النهار الكريه. هل الميت الحقيقي هو الباقي أم الناجي بالموت؟ ما هي الحدود بين الموت والحياة، الآن، هنا؟

تلك الليلة رأى الراوي، في أعماق الليل، زهرة بيضاء في مكان ما من سواتر الحرب، وحقول قصب مضيئة، وبدا القمر، بعد أمطار اليوم السابق، وحيداً وحياً وعارياً فوق الأسلاك الشائكة، النجوم تلمع فوق الخنادق وأوراق الصحف المتطايرة في الريح.

تم فتح الباب ودُفعت الضحية إلى حلبة الأسود ولا شيء يمكن الإتكاء عليه حتى السراب والوهم والليل. زهرة بيضاء واحدة. قمر مشع. رصاص مسافر بين الخطوط. الخطر الأكبر هو

القادم من الخلف وليس من الأمام. في الخلف الأقدام السوداء السرية الزاحفة، وخلف كل هذا الموت والعفن والجثث والطين والقصف، هناك في البعيد، في الفنادق الكبرى، في المراقص، في الفيلاّت الخاصة المنعزلة، تصدح الموسيقى، وترقص السيقان، وتدور الكؤوس والرؤوس، ولا أحد يعرف شيئاً بالامطار الهاطلة هنا في هذا الجحيم.

كان الراوي يجلس في انتظار ملائكة الجحيم بعد الانتهاء من قوائم الموت، الساعات تمر كخيول هرمة. القمر يلوح بارداً ومحنطاً فوق الاسلاك.

لكنه شاهد طيف امرأة، موقداً، مائدة عشاء، ضوء شرفة هادئة الاضاءة، غرفة صغيرة دافئة ونظيفة بسرير جميل وحساء لذيذ وهي العناصر المضادة لهذا الواقع القاسي. كان مايزال قادراً على الحلم والابتكار وخلق صورة معاكسة حتى في هذه

الجيفة. لكن عليه أن يكون حذراً لكي لاينام وتلتهمه أفعى الفجر كما يحدث مع الضفدع الساهر طوال الليل، خوفاً، من الأفاعي، لكنه ينام، فجراً، حيث الأفعى مختبئة في انتظار هذه اللحظة، لذلك قيل في الأمثال" حراسة ضفدع".

قرر: إذا كان يجب أن يموت في هذا الفجر، فيجب أن يجعله فجراً دامياً بقتل من يحاول إعتقاله ثم الفرار في حقول الألغام. لكن ماذا يفعل اذا كان الرصاص أمامه من العدو المختفي خلف الساتر أو من العدو المختفي خلفه هو في الساتر العراقي؟ اين هو العدو؟ بل ما معنى العدو؟ سوف يلوّح بمنديل أو أية علامة لكن ماذا سيفعل اذا أصابته رصاصة من الخلف، من العدو المحلي، وسقط، مضرجاً بالدم، في الأرض الحرام دون أن يقوى على الموت أو على الحياة؟

سيكون الإنتحار هو الحل. لن يمسكوا إلا جثة لأن ذلك أفضل من حفل تعذيب وحشي يتحول جسده فيه إلى ميدان رمي.

كان كل شيء هادئاً في الميدان بتعبير أريك ماريا ريمارك. الغبش الأزرق يلوح في الأفق. خطوات راكضة من الخلف. لقد جاؤوا أذن. كان جاهزاً للقتل الفوري والفرار. في خندق المرور، شاهد في عتمة الغبش جندياً يلوّح له. كان يلهث من التعب والفرح والخوف والصدمة. قال، لاهثاً:

ـ مبروك ألغيت البرقية هذا الفجر.

من كتبها اذن؟ لزيادة جرعة الرعب؟ للحصار؟ أم أن قرداً في حالة نشوة قرر التخلص من فائض بشري غير مرغوب فيه لكنه بدّل رأيه في الفجر بعد زوال السكر؟ قال قائد عسكري

هارب مرة إن قرارات مصيرية كانت تصدر من بيوت "الكاولية" الغجر، تحت السكر والطبل وهز الخصور والنشوة.

كانت وردة بيضاء قد ولدت، سراً، في الظلام والموت والقنابل والدخان والاسلاك الشائكة، وفي الأفق البعيد لاحت صورة امرأة منتظرة في شرفة مشرقة بالنور والهدوء والعزلة، وسرير نظيف وكلاب عاوية على قمر أبيض وأسرى وجنود واسطبلات جبلية قديمة وسجون ومقابر وأغنية تتحدث عن صحراء بعيدة وليل وبرية وغزال ورمل وعاصفة ورحلة ومنشفة متروكة على حافة فندق.

كان العالم كلوحة كثيفة من عالم مارك شاغال.

فكر في أن احداً لم يُقتل، لا هنا ولا في أي مكان آخر، وكل هذه الحوادث لم تقع. هذا كابوس طويل أو حكاية مخيفة لقضاء الوقت من البرد والحراسة والوحل والإنتظار.

# 36

حاول كاظم مجيد في الشكنة بجهود مضنية سرية تعلم لغة الطير مهما كلف الأمر، وكان يقضي وقتاً طويلاً من إجازته في البستان المجاور، وأكثر ما يقلقه، بعد أن تلاشت الأحلام الانسانية العادلة، الطريقة التي سيموت فيها، شنقاً أم بالرصاص؟

كان واثقاً من أن هذا الموت سيقع يوماً، لكن متى؟ بما أنه لم يعد يثق بساحر أو منجم أو ولي صالح، فلقد سافر إلى القرى القريبة بحثاً عن حل لهذا اللغز المحير.

في الدروب إلى القرى كان يتكلم مع العصافير والطيور بدراجته الهوائية، وكان واثقاً من أنها ترد عليه. لغة الطير أكثر

سهولة كما يرى من لغة البشر. تعلم أن لغات الطيور تختلف من طائر إلى آخر، وكذلك لغة الحيوانات: على سبيل المثال اكتشف أن الأرنب اذا رفع قائمتيه الأماميتين إلى الأعلى، فهذه لغة اشارية تعني انه في حالة حراسة وخوف، واذا تهدلت أذناه وانبطح، متراخياً، فهذا يعني انه مريض، أما اذا نام على بطنه، متحفزاً، فهذا دليل على أنه في حالة اختباء وخوف.

قد يكون قرأ يوماً كتاب "منطق الطير" للشاعر الصوفي فريد الدين العطار أو قرأ في كتاب لويس بورخيس(كتاب الكائنات الخيالية) عن رحلة السيمرغ عندما يقرر ملك الطيور السيمرغ أن يرمي ريشة من أجمل ريشه في مكان في وسط الصين، وتقرر الطيور الأخرى البحث عنها، ويموت بعض الطيور خلال البحث المضني، لكن عدداً منها مصمم على الوصول وخوض ( المغامرة الخطرة، ويعبر سبعة وديان وبحار وحين لا يبقى سوى

ثلاثين طائراً، يصلون إلى أعلى ذروة يعيش فيها السيمرغ، وفي آخر الأمر يرونه، ويدركون أن السيمرغ هو كل واحد منهم).

ريشة السيمرغ في أعماق كل واحد منا وعلينا البحث في الداخل.

كلب البولاني سيرة ذاتية لتاريخ النظام من الصعود السري الخافت البطيء كالسم، من صعود الجلاد ديگان، إلى الثكنات والمعتقلات ومدن الرفاق والسراديب وزمن جانيت والحرب.

عثر البولاني على هذا الكلب في ليلة الانقلاب عام **1963**. في تلك السنوات كان الكلب والسلطة يكبران بطريقتين مختلفتين: الكلب صار أكثر إلفة ووداعة ووفاءً، والسلطة صارت أكثر كلبيةً وشراسةً. كان سلوك الكلب يعرّي سلوك السلطة.

كان كوخ البولاني هادئاً على الشاطئ أول الأمر. المرح والصيد والشرب والسباحة والغناء بعيداً عن رقابة الأمن المحلي،

وفي مرحلة تالية دخل الكوخ، مثل كل المدن، مرحلة التفتيش والسؤال والمداهمة. بعد نهاية البولاني الغامضة، جاءت نهاية علوان زنبور. مرحلة الاختفاء وحفلات الإعدام المفتوحة. ثمن رصاص الضحية. غلق الأبواب والنوافذ والأفواه والقلوب والمشاعر. السجون السرية. الثكنات. أشباح القتلى في الليل.

ليس ما يبحث عنه كاظم الكاتب العمومي والجندي غير المسلح اليوم، ريشة السيمرغ، بل يبحث عن نبوءة تحدد مصيره المقبل.

في أعماق ليلة ليست في ذاكرة أحد، إرتفع من جهة الشاطئ عواء طويل كنحيب لكلب منسي. سقط كاظم في العتمة الأخيرة في منزله بعد أن كبست على قلبه زجاجة عرق في ليلة كانت فيها الجيوش تخوض قتالاً ضارياً على الحدود على إيقاع

طبول وموسيقى الفنادق الكبرى وحفلات الرقص في النوادي الخاصة.

لكن أهم شيء إختفى معه هو لغز لغة الطيور. رغم أن بورخيس مات قبله بسنوات لكنه كتب مع ذلك عنه قصة جميلة تتحدث عن كاتب عمومي عراقي مات، ثملاً، تحت ظلال جدار منزل متآكل، في ليلة حرب، وفي الصباح إختفى الجدار، لكنهم وجدوا الظل.

# 37

عُثر على شرطي أمن، مشنوقاً، في اليوم التاسع لوفاة كاظم عشيق زوجة المشنوق. ذلك اليوم، كانت الزوجة في زيارة لقبر الحبيب الذي أطلق حواسها ورغباتها وجسدها وروحها من الأسر أكثر مما فعل الزوج المشغول باعتقال الناس.

رغم حداثة القبر، قرأت بدهشة على الشاهدة الرخامية هذه العبارة التي تقول ان كاظم مجيد قد قُتل في القرن الهجري الأول في كربلاء، وهو أمر لم تجد له تفسيراً. من الميت في هذه الفترة: الماشي أم المحمول في جنازة؟

لكن حادثة انتحار زوجها، وهي التسمية المؤقتة لهذا الموت الداهم، جعلتها أكثر إنشغالاً بها من سواها رغم الموت المتجول في الشوارع.

هذه ليست عاصفةً أو كارثةً أو طوفاناً رغم ان هذه الأرض شهدت في قرون سابقة مثل هذه الكوارث. إختفى ملاك الموت هذه الفترة، وصار الموت الطبيعي ذكرى بعد أن أخذ شكل الجريمة والقتل.

عندما تم انزال جثمان رجل الأمن من سقف الغرفة، خرجت من دبره ريح بدت كما لو أنها تحية ساخرة لهذا الحضور المتأخر، أو كلمة سر لم يتح له أن يصرح بها. هناك من فسر الأمر على انها نهاية تليق بجلاد.

الشيء الغريب في هذا الموت هو استعمال الحبل، فكرت الزوجة، مع انه يحمل مسدساً كرجل أمن من النوع القادر على قتل عشرة ثيران بصلية واحدة.

لماذا الحبل؟ هل كان يريد أن يموت موتاً طقسياً لكي ينجو من عذاب ما، خفي، من هزيمة روحية أو جنسية أو عاطفية أو سياسية عاتية؟ أو أن جهاز الأمن أراد في النهاية مكافأته لكي لا يموت كقوّاد؟

ليس موته المخيف والحزين في هذه القضية بل الطريقة. ليس من المعقول، فكرت الزوجة، أن ينتحر لمجرد مشاعر كرامة جريحة بعد أن مرغته بالوحل سنوات وأدمن على الذل والعار وصار ينتقم من بؤسه بمطاردة الناس. فكرت في ان هذه الحشرة الكريهة لا تنتحر من أجل شرف أو قضية نظيفة لكنه قد يكون قُتل، واذا كان قد مات، منتحراً، فهذه علامة على أن هذا الوباء السياسي على وشك الانحسار، لأن انتحار رجل أمن بسبب يقظة ضمير دلالة مهمة، لكن هذا أبعد الاحتمالات في الوقت الحاضر.

ألا يكون موت العشيق هو الذي فجر في الزوج شهية الموت بعد أن وصلت الرحلة غايتها ولم يعد هناك ما يخشاه وقد استهلك كل الطاقة التي تبقيه حيّاً؟ الانسان طبقات وليس سطحاً لكي يُفسر.

لماذا الحبل؟ هذا هو السؤال المحير. في التحقيق الذي تم معها قالت بهدوء وثقة:

ـ زوجي قُتل.

ـ من قتله؟

ـ لا أعرف.

ـ هل كان يشكو من أحد؟

ـ من غريم .

ـ لكن عشيقك مات؟

ـ لكن زوجي قُتل.

ـ هل تشكين بأحد؟

ـ لا، لكنه شريك معكم في حوادث قتل كثيرة.

ـ هو قال لك؟

ـ نعم ومرات.

في أعماق الليل، تحت عمود النور الشاحب، والمطر المنثال، ونباح كلب بعيد،جاءت سيارة معتمة النوافذ والزجاج، وتوقفت عند باب أرملة رجل الأمن.

ـ خمس دقائق من فضلك.

كشجرة صفصاف محترقة، أو كغزال مداهم في الدغل، كانت تركض في الشوارع، تحت المطر والسكون والضوء الشاحب والزوايا المعتمة والابواب المغلقة وهي تصرخ:

ـ برغوث، برغوث.

## 38

كعقرب صحراوي أصفر كان الليل يزحف على البلدة الخائفة، الصامتة، إلا من الريح والمطر والصراخ المباغت ومشاهد التوابيت، كما لو غاصت في قاع عالم سفلي أسطوري. ظهر تقسيم جديد للتوابيت لم يكن معروفاً في الأزمنة القديمة يوم كان الموت يحمل اسماً واحداً ليس غير. كان الميت ميتاً فعلاً، والعقاب في مكان آخر.

لكن هذه الأيام لم يعد الميت ميتاً، ولا القتيل قتيلاً، ولا القاتل قاتلاً، لم يعد الموت نفسه، لا البلدة نفسها، ولا الجحيم هو الجحيم الآخروي، بعد أن تغيرت عناوين الأشياء والأفعال والأمكنة، وصارت الدهاليز المعتمة تحت الأرض وفوقها لافتات ضوئية أو كتابات تشير إلى اسماء فنادق أو عمارات سكنية أو مكاتب مقاولات أو مراقص أو صالونات حلاقة، صارت معتقلات وأقبية عفنة تفوح برائحة الموت.

إختفى الإحتضار الطويل أيضاً بعد أن تم عبور هذا الحاجز الطبيعي بالرصاص أو الحبل أو أحواض التذويب، ولم تعد كلمة احتضار ذات معنى. جرى اختصار الموت نفسه إلى أقصى حد حتى كلمة الموت لم يعد لها أي معنى وصارت كلمة جريمة هي البديل: الأشجار، مثلاً، تنهار تحت قصف مدفعي، أو تُقطع لأسباب أمنية أو حربية، المستنقعات المائية الأسطورية العريقة في

الحضـارة والطقـوس والحـب والشـعر، تجفـف لأسـباب تتعلـق بالأمن، عتمة الليل لتفادي الطائرات المغيرة.

أسوأ أيام هذه الفترة هي أيام الصيف حيث الحرارة تملأ الجو بكـل مـا هـو كئيـب ومعـتم وعفـن. تلـوح الشـوارع في الظهـيرة القائظة خاوية حتى من الظلال وليس سوى ريح السموم تجرف كل شيء، كما لو انها بلدة مهجورة من طوفان أو من إعصار مدمر أو منحدرة نحو حرب أهلية.

اللون المهيمن هو لون الرماد على الصيف والمنازل والوجوه والشاطئ المهجور والحقول. وردة في مكان ما، تذكر الناس بايام قديمـة متلاشـية عـن مواسـم الطيـور والريـف والظـلال الحيـة، الطرية. لون الغياب الجاف شمل كل شيء بما في ذلك الشاطئ الأخضر المتوهج المضيء على مدى قرون.

توابيت قادمة من كل الأمكنة: توابيت حرب، توابيت سجون أرضية، توابيت أقبية، توابيت خونة، جبناء، توابيت أبطال قُتلوا تحت نوبة غضب، توابيت بالعلم الوطني أو عارية مثل توابيت قصة التابوت في محطة القطارات المركزية، توابيت محشوة بالقطن، توابيت قتلى غرف أو قتلى جبال.

كعقرب صحراوي تزحف الريح. البلدة في هذا الصيف الشاحب والرمادي كسحلية جريحة تزحف إلى جحر لم يعد موجوداً، كجواد مصاب بطلق ناري يزحف على بقايا الجسد. لكن أخطر أحداث الحي العتيق تلك الأيام هو خرف ثجيل العجوز الحارس الليلي المتقاعد. قد لا تكون كلمة خرف مناسبة في وصف حالته النادرة لكنه الوصف المتاح.

بدأ ثجيل، في صباح ما، على نحو مفاجئ، يردد قائلاً إن إسمه هو جبر الكاطع، قد يكون ذلك تحت تأثير صدمة حادة أو كتابات الجدران التي تحدثت عن عودة الكاطع. في مساء صيفي

مهلك طرق الباب على بيت فاطمة وأجاب عن سؤال زهور من الطارق، قائلاً:

ـ جبر الكاطع.

عندها تحنط الزمن عند تلك اللحظة. كانت زهور قد عرفت خبر حالة الاختلاط عند ثجيل لكن الرماد في الدم ساخن. كانت تحاول ان تفتح جسدها لربيع خفي تحت الجلد. مرت عشر سنوات على ذلك اليوم الحزين، يوم التابوت أمام الباب في الفجر، لتعثر على الرجل الذي تعرفت عليه من خلال الصور السرية المحرمة.

تلك السنوات الصخرية، سنوات الحريق، الممتدة بين التابوت والليل ومطاردة شبح الأب، كانت زهور كوردة برية تتفتح تحت الجمر والحيطان المتداعية في الليل في زمن عقرب أصفر زاحف على كل شيء.

ـ قلت لكِ أنا جبر الكاطع.

كوعل جبلي مستفز، رفعت زهور رأسها نحو نجمة المساء الراعشة في الشرق، في غسق مسائي ذهبي، محترق، متوهج، وكما في رؤيا بيضاء مشرقة ومقدسة، رأت فوق جدران البلدة الطينية المتلاصقة، الوجه الأبوي الذي انتظرته طويلاً في صور الجدار السرية أو بعد حكاية الهرب من التابوت. لكنها ليست أكثر من رؤيا شوق معتق.

كانت خطوات ثجيل تبتعد، بعد طرق الباب المتكرر بلا جدوى، في المساء الصيفي الثقيل، وعندما انطفأ في المنعطف، كانت ظلال الحيطان قوية كلوحات ظلال عميقة. صارت ظلال الأشياء والناس أكثر رسوخاً من الواقع الحقيقي. صار الظل هو المتحرك في شوارعٍ تسكنها الريح والأشباح والقامات الخفية المختبئة خلف كل شجرة أو عمود ضوء أو نافذة أو جدار.

كان النوم بحكم العادة وليس بحكم الحاجة. لم يعد الطيران الليلي الاحتفالي الزلق للخفافيش، شيئاً مألوفاً، بل صار علامة على اللامفسر. كان الأمر يشبه اختفاء كل قوانين الطبيعة التي ظهر انها لم تكن حقيقية، وفي هذا الخراب لا شيء حقيقياً إلا الجريمة والذعر والموت.

كان الراوي قد فتح الباب على الشارع ذلك المساء الشاحب الرمادي ولم تكن في المنزل نافذة واحدة تطل على الخارج، كانت الظلال منطرحة على الأرض، منهكةً.

عبر قط أسود الشارع وتوقف لينظر نحوه، لكنه جفل بعد اندلاع صرخة مروعة من منزل قريب تشبه صرخة حيوان جريح أو مخلوق مداهم.

صرخة لا يمكن أن تندلع إلا من تلك الجدران الرمادية، تحت سماء مهجورة من كل شيء، حتى من الضوء.

## 39

ـ الهسيس، الهسيس.

همست بائعة دجاج في السوق لجارتها التي لم تفهم المعنى الحقيقي لهذه الكلمة المشفرة بعد اختفاء القاموس السري بسبب رقابة الأمن.

أضافت البائعة، ثانيةً:

ـ جاء الحصحوص.

سألت الأخرى:

ـ ماذا يجري؟

ـ إنه يوم العمروط.

كانت الاذاعة والتلفاز والمنظمات والمؤسسات مشغولة هذا اليوم بعيد ميلاد الرئيس الذي يصادف غداً، وكانت مكبرات الصوت تملأ الشوارع بالاناشيد الحماسية رغم مرور الجنائز القادمة من الحرب.

عادت اللغة السرية من جديد رغم كل الأوامر بعد فشل اللغة القديمة في التعبير والتواصل عندما صارت منفىً وعائقاً في متاهة الذعر. في مكان آخر سمع مصطفى الترك من يهمس له:

ـ هذا يوم العمروط.

حشرج الترك:

ـ لم أفهم.

ـ عندك هرمان؟

كان الراوي يحاول فك رموز اللغة الجديدة في شرفة فندق جديد على الشاطئ يطل على غابات ساحرة وعلى النهر وعلى شبه جزيرة ربيضة في الضفة الأخرى التي صارت منتجعاً خاصاً للحزب الحاكم، بالقرب من كوخ البولاني وماكنة ضخ الماء.

هذا الفندق تحوّل مثل كل الأشياء إلى مكان للدعارة والتلصص وخضع لجهاز الأمن ويدار من مخبرين وقوادين كانوا يوماً في الجانب الآخر لكن تم ترويضهم.

كلمة الهسيس، كما في القاموس، تعني الكلام الخافت، في حين تعني العمروط اللص لكنها تعني هنا الرئيس، والحصحوص رجل الأمن أو المخبر أو كل من يحصي أنفاس الناس، والهرمان

**هو العقل. عبارة يوم العمروط تعني يوم الرئيس، وعبارة عندك هرمان تعني حكم عقلك.**

**كان الراوي في الطريق إلى المنزل قد مرَّ من أمام دائرة الأمن وشاهدهم يجرون شخصاً من شعره كخروف. كانت أسراب الطيور المنزلية الملونة تعبر سماء البلدة الرصاصية. صارت الشوارع كالأعماق متاهة وليس غير الحصحوص سيد الشوارع.**

# 40

**عندما قال حازم عيسى محمود في جلسة عائلية:**

**ـ أريد الزواج من زهور.**

**صرخ الأب كما لو انه عثر على عقرب في جيبه:**

**ـ هذه إبنة مشبوه.**

**ـ انت تعرف جيداً انه ضحية.**

**ـ من يعرف ذلك؟ ستعيش حياتك مطارداً.**

**ـ لقد كانت جدتي بريئة وضحية أيضا. أنا وزهرة بذرة خراب مشترك.**

صرخ الأب:

ـ ستجلب لنا العار.

ـ أي عار؟

ـ عار السلطة.

ـ لكن جدتي الضحية ماتت عاهرة في نظر الناس يوم كانت تغتصب أمامك وهي مريضة في الشوارع وتحت الحيطان والشعارات.

ـ لا أوافق رغم كل شيء.

ـ لن ينفع ذلك.

قال الأب، متضرعاً:

ـ لكنك جريح وقد تعود إلى الحرب؟

ـ هذا موضوع آخر.

ـ ستكون صفقة خاسرة.

ـ ليست صفقة بل علاقة حب.

قال الأب، ساخراً:

ـ حب؟ حب في هذه الأيام؟

ـ وفي هذه الأيام بالذات يكون الحب هو المطلوب وهو الجواب على القتل.

قالت الأم:

ـ ستخرج من الجيش وتعود إلى مهنتك كصحفي.

ـ لن أعود إلى مهنتي مهما كلف الأمر. لقد اضطررت للعمل بعد غلق الأبواب وأصبحت كل المهن مكرمة أو هدية من النظام وليست من حقوق الانسان.

سأل الأب:

ـ لماذا؟

ـ تاريخ مهنتي ملفق كتاريخ شكرية العطار او جانيت. نحاسب على ما نقوله أو ما نرفض أن نقوله.

ـ وتاريخ الكاطع؟

ـ كتاريخ جدتي.

غادر حازم المنزل، غاضباً، في حين كانت الطبول تقرع في الخارج. قالت الأم:

ـ أجبروا الناس على الغناء والرقص في الشوارع.

ـ هل انتهت الحرب؟

ـ لا، إنه يوم العمروط.

ـ لم أفهم.

**قال الأب ذلك، محتاراً.**

**ـ أغلق النافذة، أولاً.**

**أضافت، هامسةً، بحقد:**

**ـ عيد ميلاد الكلب. عليك بالهسيس لأن الحصحوص في كل مكان.**

**بعد ذلك الحوار الصاخب مع الإبن تذكر عيسي محمود ساعات إحتضار أمه الأخيرة، قرب جدار متآكل، تحت المطر الليلي، وتذكر رعب الاغتصاب المتكرر في الجسد المريض المستباح المسبي. فكر: بين جرح ذاكرته وجرح إبنه علاقة متينة. جرحه نتاج مجتمع وجرح ابنه نتاج سلطة. بدت حياته على طبول هذا النهار عارية كفضيحة أفراح اليوم الاحتفالي القسري الشبيه بإغتصاب أمه تلك السنوات.**

بزغ الجدار القديم في الخيال، لامعاً، كأمطار تلك الليلة، ورأى الجدار الناقع بالمطر كما يراه اليوم وقرأ شعارات الحائط. كإشراق روحي مباغت شعر انه طليق من جداره القديم الذي كان يحمله كصليب، بعد أن صار الإغتصاب طقساً يومياً.

سمع زوجته تقول من تحت الغطاء:

ـ هل انت نائم؟

ـ مشغول.

ـ بالحرب؟

ـ لا.

ـ بالعمروط؟

ـ لا.

ـ حب حازم؟

**ـ نعم وموت أمي.**

**ـ لماذا؟**

**قال بألم جارح:**

**ـ أمر غريب أن يملك الانسان القدرة على الحب في هذا الخراب والحقد والانتقام.**

**ـ ما هو الغريب؟**

**ـ كنت أخشى أن ينتقم حازم من جرحه على طريقتي.**

**ـ ما هي طريقتك؟**

**باغته السؤال وأجاب بكل صراحة:**

**ـ طريقة سافلة.**

شعرت انها تنام اليوم مع رجل لم تكن تعرفه من قبل جيداً. أما هو، فحاول بعد منتصف الليل على عواء بعيد لكلب على شاطئ أو ذئب جريح او انسان أن يبكي، لكنه لم يستطع.

## 41

كانت المقبرة الكبرى، ليلة ميلاد الدكتاتور، الميلاد المتخيل، غاصة بالزوار من كل مكان. ليست المقبرة القديمة فحسب بل الجديدة التي فُتحت بعد الحرب، وبمرسوم رئاسي قُدِّم كإنجاز وهدية تم تخصيص المقبرة الجديدة لضحايا الحرب، وفي سنوات

قادمة سيكون القرار القيادي كمكرمة هو الدفن على نفقة الدولة، لكن من هو المشمول بالدفن المجاني بعد تعذر الحياة؟

شرف الدفن بالدرجة الأولى لمن يسقط في الميدان. الميدان مفهوم واسع هذه الأيام. الميدان قد يكون ساحة حرب أو مقهى أو ملهى ليلي أو قد يكون سريراً يقدم خدمة ما، في الجنس أو التلصص، للنظام.

في هذا الحصار من الخارج، قبل الحصار الإقتصادي القريب من الإبادة، لم يجد الناس أي حل من هذا الكابوس الطويل الذي ضرب إيقاع الحياة وقواعدها غير التقوقع في وضع الجنين في الرحم أو السجين النائم من الألم الملتف على جسده. وضع تجنب العاصفة. صار الجميع سجوناً متنقلةً مشفرة. المقبرة، رغم الرقابة أيضاً، قد تكون المكان الأكثر أمناً مع المصح النفسي والعقلي والمشرحة وكل أمكنة العزل المغلقة.

تلك الليلة، في المقبرة، على دوي الأناشيد الحماسية المنطلقة من كل مكان، من الراديو، ومن مكبرات الصوت، كانت عوائل القتلى والمختفين والمعدومين، سراً، أو علناً، تسهر على ضوء القمر، ومصابيح المقبرة الشاحبة.

كانت قبور القتلى في الحرب والمعدومين في السجون أو المقتولين في الشوارع بالرصاص، تتجاور مع قبور الجلادين والعاهرات والضحايا المنتحرين: قبر شكرية العطار، مثلاً، قبر عدنان البولاني، فاطمة زوجة الكاطع، شرطي الأمن المنتحر، كاظم الكاتب العمومي، قبر جبر الكاطع، علوان زنبور، في مكان واحد.

في مكان أبعد قليلاً، كانت زهور وحازم عيسى، عند جدار متآكل، يراقبان بزوغ الفجر المتوهج بالحمرة، من خلف أسوار المقبرة.

ـ والدي يعتقد ان جرحي أخطر من جرحه الشخصي. هل فهمتِ؟

ـ ليس تماماً.

ـ هو يساوي بيننا على مستوى التجربة؟

ـ وماذا تعتقد؟

ـ أنا أعتقد، قال حازم، حزيناً، إن جرحه أخطر وأكثر قسوة لأنه عاش تجربة شخصية وحيداً منفرداً وكان طفلاً، في حين عشت تجربة الجرح في حرب مع كثيرين. حدثتكِ يوماً عن مأساة الإغتصاب الجماعي لأمه وجدتي.

قالت زهور متألمةً:

ـ نعم وهذا شيء فظيع.

ـ أنا جرحت في معركة جماعية حتى لو كانت هذه الحرب قذرة، لكنه جُرح، طفلاً، وأعزل.

ـ هل تعتقد أن والدك رد على جرحه بصورة منطقية؟

ـ ليس هناك من يرد على جرحه العاطفي بطريقة منطقية لأن الجرح نفسه لا يخضع للمنطق. لجأ والدي إلى اسلوب مدمر هو تلويث النساء من أجل الانتقام لكنه لم يقض على ذاكرته هو ولا ذاكرة غيره وقد تكون نفسها عقدة الدكتاتور. الجريمة الكبرى كالكذبة الكبرى تبقى، طويلاً. في بلدة صغيرة ومغلقة مثل بلدتنا يمكن لكل حثالة من باب التباهي في كراج أو مقهى أو نادي أن يدعي ما يشاء عنك أو عني، كذباً، في السياسة أو في الأخلاق، وتعيش هذه الكذبة،حياةً، في عقول الناس بلا فحص ولا مراجعة ولا أي شك.

في الفجر المحمر، في الشفق الشفاف المتوهج، الشاحب، شحوب صحراء عريقة في القدم، كانت الشواهد الرخامية ترتفع نحو السماء كأذرع مستغيثة طالعة من التراب أو من الغرق.

من مكان ما، من الشفق المحترق خلف الأسوار، من وراء الشواهد، من صور الموتى، من المآذن، السراديب الأرضية، ينبع صوت نواح بحجم الأرض. صوت نواح هادئ، وليس من المعروف اذا كان صوت رجل أو امرأة أو صوت كائن جريح.

عائدةً من شرودها، همست زهور بحياء أنثى خائفة ومترددة من جسدها وعطرها ومشاعرها:

ـ أحبك.

# 42

كـان الأوان قـد فـات حينمـا أفاقـت البلـدة مـن شـرودها الـداخلي، ولم يعـد السـجن هـو الحـل الوحيـد، بـل صـار النـاس يُـداهمون في أعمـاقهم وقلاعهـم النفسـية ومراقبـة أحلامهـم وأوكـارهم الداخليـة العميقـة الـتي لا يظهـر منهـا للسـطح إلا الهياكل البشرية المتنقلة والتي ترطن بلغة مشفرة تنفي ولا تقرّب بين الناس في عبورها الشبحي الذي سرعان ما يتلاشى في عتمة الليل أو صمت النهار.

كـان المطلـوب في التعليمـات السـرية أو في القـوانين العلنيـة الكثيرة أو في الإجراءات العاجلـة الـتي تفرضـها ظـروف طارئـة،

إخراج الناس، بالقوة، إلى العراء والسطح، من الأوكار والأنفاق النفسية السرية التي حفروها هرباً من الإقتلاع والرعب. كانوا يضعون القوانين في الجحور النفسية كما يوضع الماء في جحور الجرذان والفئران لكي تخرج إلى المصيدة، من خلال ألاعيب كثيرة، ولم تعد هناك مساحات آمنة للحلم.

صار الانسان الصامت خطراً لأن الصمت تجاوز وفردية وحرية وخيار، في حين ان السلطة خطاب علني يقرر الصمت والكلام. لم تعد هناك حياة سرية بما في ذلك تعطيل كل عاطفة وربطها بالنظام، ولم يعد هناك من يحلم أو يحب أو يفرح لحسابه الخاص. هناك فرح عام وحب عام وحلم عام وموت عام. أُلغيت الفردية تماما وتم محو الذات وبرزت الجوقة.

فصول الطبيعة لم تعد ظواهر طبيعية تُدرَس بل صارت حالات مهمة في الدراسات الاستراتيجية الحربية: ضوء القمر، أو الريح، أو الغيوم، أو الشمس، أو العواصف أو الغبار، أو المطر،

الضباب، الوحل، الرمل، الطين، لم تعد هذه من عناصر الطبيعة، بل من قوى الحرب، سلباً أو إيجاباً.

ليست رغبات وعواطف ومشاعر الناس هي المهمة بل ساحة العمليات الحربية. تعطلت قوانين الطبيعة لصالح قوانين القصر. كل شيء يتحرك بأمر الدكتاتور حتى المطر والانجاب والنوم والدفن.

بعد أن صارت الانفاق النفسية عرضة للمداهمة والعزل والفحص، والقانون يعاقب على الأحلام غير المرغوب فيها، صار من الصعب جداً البقاء في السجن المنزلي أو القبو النفسي، وظهر كثيرون إلى السطح بصورة غير متوقعة مثل كائنات أو قوارض داهمها حريق أو ماء في الجحور.

لم يعد الناس يعرفون بعضهم البعض بالصفات القديمة المنقرضة القائمة على الجوار أو القرابة أو الموهبة أو النبل او الصداقة أو المكان المشترك، هذه اختفت أيضاً، لم تعد الهوية القديمة هي المشترك، بل بالصفات الجديدة المنسقة حسب قوانين النظام، مثل هذا شريف وذاك مخبر، هذا حاقد وذاك مشبوه، هذه مخلصة وتلك مريبة، هذا بطل وذاك خائن، هذا عليه علامة استفهام وذاك مخلص... والخ.

صدر قانون في الجريدة الرسمية يعاقب على النوايا ويحكم بالإعدام على كل من ينوي الهروب إلى دولة معادية واكتشفت نيته قبل التنفيذ مع انه حتى في القوانين الاسلامية القديمة لا يمكن القصاص قبل البيِّنة الذي صار شعار الثورة الفرنسية في ان المتهم بريء حتى تثبت ادانته.

المجنون ومن على صورته خارج هذا المدار لأن الجنون محرر ومنقذ بقدرة السحر أو المرض أو الجن. لم نعد نميز بين الخرف الحقيقي، الجنون الحقيقي، وبين المصطنع، لأن  حالات من هذا النوع تكاثرت تلك الفترة، بل حتى حالات من ضرب الجسد بالرصاص في جبهة الحرب تصاعدت مما إضطر النظام لإصدار قانونه المسمى" إيذاء النفس" الذي يعقاب بالإعدام كل من يحاول إيذاء جسده للتخلص من الحرب، لأن الجسد ليس ملكية شخصية بل من الأملاك العامة كأعمدة الكهرباء والمباول العامة والمصاطب والأرصفة والاسلاك الشائكة.

بعد إصابة مصطفى الترك بالخرف،أصيب ثجيل الحارس المتقاعد، واختفى ابو عزيز الإسكافي عن الأنظار، فجأة، في قلب المعمعة والتوابيت والانتحار والجنون والسكر وعتمة المنازل والشوارع في الليل إلا من مصابيح مطلية باللون الأزرق،

المصابيح الزرق، بسبب الغارات الجوية، وعلى أية حال من يتذكر موت أو اختفاء اسكافي في هذا الجنون المنفلت والداعر؟

مرت بضعة أسابيع هادئة كنسمة على محتضر لم يقع فيها اي حادث مثير وذُهل الناس كيف أن الصفاء أصاب الناس بالإضطراب الذي يصيب كل مسافر بعد رحلة طويلة وعرة عندما يتوقف القطار. نسي الناس الصفاء الذي جاء، محيراً، وغريباً.

لكن هذه الهدنة الحقيقية أو المصطنعة لم تدم طويلاً. لا يمكن للحياة أن تتحرك حسب قوانينها بل حسب قوانين الدكتاتور، لأن السكون العام يخلق الفوضى والترهل والاسترخاء، لذلك يجب حضور النظام لكي يشعر الناس ان الحياة تتحرك بموجب قوانينه، فصدر قرار علني يعطي صلاحية لكل شخص بتنفيذ حكم الاعدام بكل شخص هارب من الحرب أو يشتم الرئيس.

هذا هو السبب الذي جعل الراوي يصاب بالهلع بعد الهروب من الحرب عام 1986 ويستأجر غرفة متداعية في الحيدر خانة باسم مستعار وهوية صحفية نقابية ويستغرق عدة أيام في قراءة رواية فؤاد التكرلي" الرجع البعيد" التي تدور بعض أحداثها في الحي نفسه. إحد شخوص الرواية وهو يساري يسكر وينوح ويكتب رسائل غرام إلى" بجغ" غلام تولّع به في حين كان الإنقلابيون يحاصرون وزارة الدفاع عام 1963.

*

1979 كان راوي هذه الحكايات قد اختبأ في الحيدر خانة خلال الحملة على الحزب الشيوعي والمستقلين والمشبوهين حسب التعبير الأمني، لكنه انتقل الى ضواحي بغداد الجنوبية في

منـزل للصـفيح والطـوب بعـد أن غصّـت الفنـادق والحـدائق والحانات والمقاهي بالفارين من المدن المداهمة.

التسكع في شارع السعدون ولم يمض على التسريح من الجيش في نهاية حرب الجبل أكثر من إسبوع. اللقـاءات المتكـررة في كـازينو "الموعـد" مـع شـيوعيين فـارين أصـدقاء ومـنهم قحطـان التبّان وعلي المشدوه وعامل مطبعة في جريدة" طريق الشعب".

في سنوات قادمة سينسى هؤلاء كل هذه اللقاءات لأن هذه طبيعـة الـذاكرة الايديولوجيـة في المحو والانتقـاء والـدمج حسـب بـول ريكـور. الضـمير جسـد والايـديولوجيا نظريـة: مـن يـروي الحكاية؟

موعـد مـع التبّـان في صـباح **20** مـايس **1979** في مقهـى في البتـاوين قـرب موقـف حافلـة نقـل الركـاب إلى معسـكر الرشـيد

مقابل نصب الحرية لكنه لم يأت وتبين في ما بعد انه قُبض عليه في منزل لتبدأ مهاجمة الأوكار: منتصف الليل تداهم مفرزة أمن مخبأ الراوي بعد أن داهمت أوكاراً أخرى لشيوعيين منظمين في نوعِ من تداعي أحجار الدومينو. من الذي انهار وأدى إلى هذا التدحرجِ؟ من هو مفتاح البيوت السرية؟من أنقذ رأسه مقابل صفقة، تحت التعذيب؟

*

تنفيذاً لقانون الاعدام الفوري بلا محاكمة، قتل أب إبنه بحجة الهروب من الحرب وكُرِّم من قبل الدكتاتور كرمز للعراقي الجديد، لكن السبب الحقيقي للقتل ليس الهروب الذي كان ذريعة، بل

**للتخلص من الإبن في الحرب بسبب زوجته الحسناء التي دُهِشت من تكريم الأب القاتل.**

**شرح الأب في تلك المقابلة العلنية كيف أطلق الرصاص على الإبن النائم، تحت ضوء القمر، فوق السطح، وكيف فز القتيل مرعوباً وهو يحاول فهم ما يجري، لكنه عاجله برصاصة قاتلة في الرأس، حتى ان رئيس أركان الجيش وهو جنرال حرفي من أقدم ضباط الجيش ظل يبحلق في الأب القاتل، مندهشاً من هذه الصفاقة، رغم الاخراج المسرحي المتقن للعرض.**

**تلك الليلة نامت البلدة مرعوبة أكثر من كل الليالي، وفي تلك الليلة بالذات كان حميد سائس الخيل المشرد وبائع العربة الجوال يأخذ طريقه، للمرة الثانية، إلى منزل وصال حسب التعهد الأمني، في عتمة الليل وكآبة النوافذ وصمت الأشجار.**

بدا في ضوء الوقائع أن الموت بصورة ما، هو أمر ليس بعيداً: لا الحرب ولا السجن ولا الصلاة ولا الأضرحة ولا التعاويذ ولا السحر ولا الخمرة ولا النوم قادر على إبعاد شبح الموت المتنقل.

في أعماق تلك الليلة، مرَّ رويّح الأعمى بعد غياب طويل عن الشوارع، وهو يردد، جذلاً:

ـ ( إذا أبصرتنا، أبصرته

وإذا أبصرته، أبصرتنا).

من وراء جدار منزل رويّح، في العتمة والسكون، عفط شخص ما في الشارع، فردّ عليه الأعمى:

ـ عفطي.

# 43

**في واحدة من أسوأ أيام تلك الحرب قرر الراوي زيارة صديقه الرسام الذي يقضي وقتاً طويلاً في الشرب والرسم والنوم عندما يأتي من الحرب، مجازاً، وفي مرحلة متقدمة من السكر تنتابه صور غريبة عن نخلة تحترق، في الفجر، تلقائياً، في البيت المجاور المهجور الذي صار أرض خربة بعد طرد صاحبه إلى إيران مع الأسرة.**

**فُسِّر هذا التخيل في كونه البديل الوحيد المتاح للعقل في التفكير والتصور بعد غلق الأبواب بالقوة. التفكير الأسطوري يبدأ عادة عندما لا يكون الانسان قادراً على التفكير الصحيح**

الواقعي، وفي حالة الرسام قد يكون الأمر تحولاً أو نكوصاً في الشخصية التي أُعيق نموها الطبيعي وهي محنة أكثر من جيل.

هناك أيضا عند الرسام نزعة غريبة في حرق الجلد بأعقاب السجائر كما لو ان هذا الجسد ينتمي إلى نظام، شيء، آخر لا علاقة له به، أو ان هذا الجسد صار عبأً يجب التخلص منه، ويمكن شم رائحة لحم محترق من مسافة قصيرة. عدا ذلك كان الرسام ودوداً ولطيفاً وطفلاً.

عندما نخرج من السجون، نذهب إلى الحرب، وبالعكس عندما تنتهي الحرب نعود إلى السجون. النظام يريد كلاب حراسة أيام السلم، وعلف مدافع أيام الحرب. هذا وطن أم هاوية؟

كان الراوي يقطع، في الطريق إلى بيت الرسام، شوارع معتمة الاضاءة أيام الحرب، لكن تلك الليلة كان النور الناعم يشبه ذكرى ليلة قديمة منسية. كآبة المشي في شوارع ماطرة فارغة.

كآبة رخيصة بلا ثمن أو جمال أو معنى، سطحية، بلا مجد لأنها من صنع قوى تافهة تحرم الضحية حتى الشعور بقيمة العدو وقيمة الصراع.

لم تكن البلدة، في سنوات قديمة، تلوح بهذا الشكل، كما لو أن الماضي القريب الذي لم يكن مثالياً قد تعرض للإغتيال، وهذا الصمت لا يتوفر إلا في مدن أسيرة أو مدمرة: حديد ونفايات وأبواب مخلعة وتراب وعلب صفيح وأغلفة معلبات ومناديل وغير ذلك منتشرة في الشوارع، وقد يكون عبور قط منتصف الليل علامة الحياة الوحيدة في بعض الليالي.

قبل أن يمر من أمام منزل الرسام، مرّ من أمام منزل زهور المضاء النافذة. برقت، كنور، عتبة الباب التي حملت تابوت الأب ذلك الفجر. هو يعرف زهور منذ الطفولة وكانت حريصة على أن يكون قريباً منها في الأوقات الحرجة من دون أن يعني ذلك عاطفة ملتهبة أو اشواق غرام، لأنه هو نفسه كان يعيش

تلك السنوات حكاية حب عاصفة في ظروف حرب، حكاية حب صارت جريمة في زمن انقلاب المعايير حين يصبح الحب جريمةً وتصبح الجريمة بطولةً. يتحول العاشق إلى مجرم في حين يتحول المجرم إلى بطل.

كانت زهور مولعة بالشعر كالرسام، وفي يوم ما، تحت عمود نور الشارعِ، وأمام النوافذ المغلقة، والجدران الطينية، عرضت عليه ديوان شِعرها المكتوب بخط ناعم وأنيق هو بلا شك خطها أطلقت عليه( عزلة الفراشات). قال لها بعد القراءة إن الديوان جميل جدا، لكنه ظل مشغولاً بالعنوان الرائع والمعبر الذي يبوح أكثر مما يقول. كيف يمكن أن تخرج فراشات من هذه الدار ومن هذه العتبة؟

في منتهى السرية، زودها بدواوين شعر لبعض الشعراء العرب وغيرهم من السياب إلى رفائيل ألبرتي، ومن محمود درويش إلى

**سان جون بيرس. قالت له مرة إن قصيدة " المراكب الضيقة" لسان جون بيرس أجمل ما قرأته من شعر، ثم قالت بدون أي شعور بالخوف والتردد، فجأة:**

**ـ أريد الهروب من هنا.**

**ـ إلى أين؟**

**ـ لا أدري لكني سأحاول. هل فكرت أنت في الهروب؟**

**ـ مرات لكن كل الحدود مغلقة.**

**ـ قد يكون الأمر سهلاً لك إذ يمكن الهروب من الجبهة.**

**ـ لكنها مغامرة مجنونة: الألغام، الجنود من الطرفين، الوقت، الفرصة، العدو؟**

**ردت بهدوء وتصميم:**

ـ أعتقد ان العدو هنا. الألغام موجودة هنا. هل لاحظت كيف نتبادل الشعر كما لو كنا نتبادل متفجرات؟ هنا الخطوط الأمامية وليست هناك. أهرب، بسرعة قبل أن تطبق عليك.

بصورة غير منتظرة دست في يده ورقة صغيرة كمنشور سري تتضمن أسماء نساء مختفيات في السجون:

"زهرة ذياب شرهان، بغداد، تاريخ الاختفاء 27 تموز 1980. فريال عباس، بغداد، تاريخ الاختفاء 18أيلول 1980. بعد ثلاثة شهور اختفت أختها نجاة عباس. ليلي عبد الباقي، طالبة في كلية الهندسة، السنة الثالثة، تاريخ الاختفاء 14 أيلول 1981. بدرية دخيل علاوي، العمر 54 سنة، بغداد، تاريخ الاختفاء 14 آب 1980. وادية هادي داود، أم لثلاثة أطفال بغداد، تاريخ الاختفاء حزيران 1980. صبيحة نوري مهدي، أم لثلاثة أطفال، البصرة، تاريخ الاختفاء حزيران 1980 مع

زوجها عبد الرزاق أحمد. رجاء عبد الله، خريجة جامعة بغداد، أم لطفلين، ديالي، تاريخ الاختفاء 1974. رجاء محمد رشيد، الفترة نفسها، بغداد، أم لطفلين. رمزية جودة الشيباني، بغداد، حي عدن، أم لطفلين، خريجة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، تاريخ الاختفاء 17 كانون الثاني 1981. السيدة آمنة الصدر، النجف، تاريخ الاختفاء نيسان 1981. سميرة جواد كاظم الموسوي، بغداد، مواليد 1951، خريجة الإدارة والإقتصاد، جامعة بغداد، تاريخ الاختفاءمنتصف آيار، سنة الاختفاء غير واضحة بسبب سرعة الخط المرتبك.

قال لها بصوت جاف لكنه حرص على أن يكون عادياً:

ـ كيف حصلتِ على هذا التقرير؟

ـ لست عضوة في تنظيم ولكني حصلت عليه من صديقة زوجها مسؤول في الحزب الحاكم وهو تقرير منظمة العفو الدولية سنة 1983. هل أنت خائف؟

ـ في الأقل كوني حذرة.

ـ أنت أيضا كن حذراً.

قبل أن ينعطف نحو منزل الرسام، شاهد مجموعة من الأطفال تركض وراء قط، عندما سأل عن السبب قال له أحدهم إن الأمر يتعلق بمكافأة تقدمها السلطات المحلية لكل من يقتل أو يعثر على قط وان إعلاناً وضع في السوق الداخلي حول الأمر.

حين أخبر الرسام بحكاية القط، كان الآخر قد شرع في النظر إليه بصورة غريبة، على نحو غير متوقع، وكان على وشك الحديث في أمر آخر مختلف، لكن الرسام، في منتهى الرصانة، قبل أن يبتلعه السكر ويدخل في عالم تخيلي، سأله:

ـ كيف تفسر الأمر؟

ـ أمر القطط؟ لست أدري ما هو اللغز.

قال الرسام وهو يتأمل لوحة جسر البلدة بعد رحيل العبّارة:

ـ طريقة جديدة لإذلال الناس.

ـ قد يكون هذا صحيحاً. ميلان كونديرا في إحدى رواياته يقول إن النظام التشيكي الشيوعي كان يقدم مكافآت لكل من يعثر على قط، حياً.

كان الرسام يبدو هذه الليلة صاحياً صحواً مريباً، ومضطرباً، ولم تكن مفاجأة كبير حين قال الرسام مباشرة:

ـ كنت خارجاً منهم هذا المساء رغم انني وصلت البارحة من الجبهة.

كان راوي هذه الحكايات مبلبلاً بعض الشيء في هذه الساعات المتغيرة في الطقس وأخبار الحرب والشوارع المعتمة والاجازة الموشكة على الانتهاء ومشاعره المخبأة بعناية خاصة.

ـ من" هم" أرجوك؟

**ـ دائرة الأمن.**

**ـ كيف حصل هذا؟**

**ـ طلبوا مني تقريراً عنك.**

**ـ عني؟**

**ـ نعم، عنك. لكني صممت على الموت بدل الوشاية. لم تسألني عن هذه العادة الكريهة في حرق جلدي بالسجائر بدافع التهذيب. كنت أنتظر زيارتك يوماً لكي أقول لك الحقيقة لكن ثق أنني لست نذلاً.**

**قال الرواي بصدق حقيقي:**

**ـ أعرف ذلك، وهذا الذي طلبوه منك، طلبوه من غيرك عنك وعن آخرين وهو أيضا يشبه تمارين الإذلال في البحث عن قطط وربما غدا عن كلاب لترويض الناس. لا أعتقد أنك بحاجة إلى هذا التأكيد وهدفهم هو التلويث وليس المعلومات.**

ـ اذن، سأروي لك الحكاية.

أي لغز حتى ظهور الجن، في منعطف طريق، لم يعد مثيراً وغريباً، لكن حكاية الرسام مؤلمة وتتكرر في سجون المنظمة السرية: كان الرسام قد وقَّع معصوب العينين في السجن على ورقة قيل له إنها تعهد بعدم العمل السياسي، وكانت تلك هي رغبته الفعلية، لأنه غير قادر على تحمل صرامة العمل المنظم في حزب أو جماعة، لكن الطريقة كانت مذلة. بعد التوقيع، قالوا له إنه وقَّع على وثيقة تعهد بالعمل كمخبر.

ـ لكنك لم تعمل معهم؟

ـ أبداً.

ـ لا قيمة لذلك. هل أقول لك شيئاً؟ الحزب الشيوعي يُدار من داخل مديرية الأمن العام ومن مخبرين كبار في الهرم القيادي أو الحواشي القريبة، ولا حاجة لمعلومات عنك وعن غيرك تدور

عن اجتماعات حزبية عادية وقراءات أدبية لمكسيم غوركي وغيره لا تنفع ولا تضر. الأمن المحلي يفعل كل هذا من أجل الإذلال. هل هددوك بشيء؟

ـ قالوا سيكتبون لضابط استخبارات الوحدة العسكرية عني كحاقد في حال الرفض.

ـ لكنك بالفعل حاقد؟

وضحكا معاً رغم الألم:

ـ هل من نهاية لهذا الكابوس؟ قال الرسام وكرع الكأس حتى الثمالة.

كانت لوحة الجسر المعلقة على الجدار تعكس كل الألوان المشرقة، اللون الباهر للماء، الدغل المتوهج تحت الجسر من الجانبين، الأشجار المزهرة في المدى البعيد المفتوح، الغسق الرماني المحترق.

**غادر الراوي المنزل إلى الشارع الفارغ إلا من ظل أمامه يتحرك بهدوء في السكون الضاج ولم يشم تلك الليلة رائحة جلد يحترق بل شم رائحة حريق كبير في الأفق.**

# 44

لم تعد التوابيت تدخل يومياً كما في السابق بعد أن قامت السلطات بتنظيم وصولها وتسليمها إلى ذويها في أوقات محددة في الإسبوع لكي لا يبدو مشهد الحرب واضحاً، وتوقف سيل الجنازات في أعماق الليل والفجر والمساء حسب الخطة الجديدة.

بدت البلدة هادئة هذه الأيام رغم أخبار الحرب المثيرة لكن أسوأ ما وقع هو حادث قتل الأرملة الجميلة عفّت في منزلها من قبل الإخوة الثلاثة.

كانت عفّت بالوجه القمحي الفتي وقامة السرو والأصابع المطرية والبشرة السمراء مزيجاً من اللهب والريح والعذوبة وأكثر النساء فتنةً وغوايةً.

**لكن مشكلتها بدأت عندما قُتل زوجها في الحرب ولم تسلّم جثته كاملةً بل حفنة تراب وعظام ولحم في تابوت مغلق قيل لها هذا هو زوجك. في المقبرة نشأت مشكلة بينها وبين الأمن حين أرادت دفنه إلى جوار جبر الكاطع.**

**قال لها أحدهم:**

**ـ كيف يتساوى الخونة مع الشهداء؟**

**ردت عفّت بشراسة:**

**ـ من يقرر ذلك؟**

**ـ نحن.**

**ـ والله؟**

**ـ اخرسي.**

في النهاية دفن إلى جوار جانيت أو شكرية العطار. لكن مشكلة عفّت بدأت عندما تحول جسدها إلى الفائر المتوثب إلى طائر مذعور وحريق تحت الجلد لم تستطع كل المهدئات والأضرحة والبخور والصلوات السيطرة عليه. لم يعد جسداً تحت تلك العباءة السوداء كراية للشهوة والاغراء بل صار نمراً متوحشاً مسكوناً بالصيف والليل والرغبة والغابة والنار.

كان مرورها من أمام مقهى، مثلاً، كمرور موكب من الأجراس الضاجة في عيد صيفي متجول أو قافلة من الإبل النافر. صار جسدها من الحرمان والخوف والموت والعتمة، عطراً متوحشاً في شوارعِ مهجورة من المطر الحقيقي والبرق والنوم والرغبة.

تراجعت أخبار الحرب وحوادث تنفيذ أحكام الموت في السجون والثكنات والشوارعِ وميادين الرمي السرية.

قال بعض رجال البلدة عن عفّت:

ـ هذه غواية شيطان.

وردد آخرون:

ـ "ومااربك مهلك القرى لو لم يكن أهلها ظالمين".

كانت تشعر مع الوقت والليل واللهب الداخلي المشع المحرق الواخز ان جسدها صار فوق الإحتمال ولم يعد ممكناً تحمله والتجول به في شوارع ميتة إلا من ريح صفراء ولم يعد جسداً بل صار وحشاً يلتهم بقاياها كل يوم.

في بعض الليالي صارت تفتح الباب بحذر وخوف أول الإنزلاق. لم يعد النمر الجسدي متوحشاً بعد أن روضته الأصابع والشفاه والمياه الدافئة، حتى النهد الوحشي البربري الذي كان في صلابة الحجر صار ناعماً وحاراً وأليفاً كطائر في عش.

لكن قراراً جديداً صدر تلك الأيام من القصر وضع حداً لتمرد جسد عفّت وغيرها من نساء الجنود القتلى والمعدومين،

ويعطي القرار الجديد الحق لمن يهمه الأمر بقتل كل خاطئة دون أن تترتب على ذلك نتائج قانونية على القاتل.

كانت تسرح شعرها أمام المرآة عندما دخل الإخوة الثلاثة إلى غرفتها. في اعماق المرآة رأت سكاكينهم تلمع في ضوء المصباح كما ترى الذبيحة سكين الجزار في المسلخ. رأت الهاوية وشمت رائحة الدم وشعرها يهرب إلى أعماق المرآة البعيدة. نظرت إلى وجهها للمرة الأخيرة، فشاهدت كما في منام النهار يتلاشى والريح تعوي.

تحت قوة عاتية لم يتوقعها الإخوة، إستدارت نحو الباب، والسكاكين والمصير العاري، وهشمت المرآة على رأس الأول. تراجع الإثنان. كصرخة لبوة محاصرة صرخت وهي تخاطب الأخ الأصغر:

ـ انت شاذ وجبان.

فاجأتها سكين في الخاصرة. لم تسقط. عضت شعرها. لا سلاح عندها غيره. باغتها آخر بسكين من الخلف. صارت داخل حلقة مميتة. رأت دمها يتطاير في الريح والوجوه والسطوح والنهار وأسراب العصافير والجدران والليل والحرب وحفلات الإعدام وأراجيح العيد والاضرحة والنجوم.

هوت كشجرة صفصاف حمراء. في الخارج، في تلك الظهيرة العراقية المشتعلة، كان طابور توابيت قتلى قد دخل قادماً من ثلاجات الموتى.

# 45

أيلـول الظـل البـارد وبـدايات الخريـف والمعـارك والمواقـد والحكايات والسهر الليلي. كان الراوي يقطع المسافة تلك الليلة إلى منزل الرسام الذي يعيش في وضع نفسي صعب بعد حصار الأمن وحصار الحرب وكان وجوده في الخطوط الأمامية كنوع من النفي للجنود غير المرغوب فيهم.

كلمة نفي متداولة بين الجنود في الخنادق بعد أن تحولت الحرب إلى محرقـة للمشـبوهين والحاقـدين والسـيئين والسـجناء السـابقين وأبنـاء وأقـارب المعـدومين والفـارين حسـب القـاموس السـائد. هنـاك وحـدات خاصـة بهـذا الصـنف مـن الجنـود كـاللواء الآلي العشـرين الـذي كـان الـراوي أحـد جنـوده، وقـد قـام بهجمـات

عسكرية إنتحارية دون التقيد بشروط السرية، حيث كانت الاستعدادات تجري في أجواء صاخبة ومكشوفة لغرض التخلص من فائض بشري قبل نهاية الحرب المقتربة، وفي هذه الحالة يجب تنظيف الجيش من كبار الضباط أيضاً الذين خبروا الحرب وصار من الصعب السيطرة عليهم في ثكنات آمنة، لذلك بدأت حرب تصفيات سرية لهم عن طريق الشاحنات والسم أو سقوط الطائرات المروحية كما حدث مع جنرال كبير في الفليق الخامس مع طاقم من كبار ضابطه في كركوك، في قرية شوان.

مع ذلك هناك من الجنود من يفضل هذا النفي على البقاء في المدن، في الأقل يعرف الجنود في الخنادق الشكل العلني للحرب مسلحين وليسوا عزلاً كما في البيوت والشوارع.

في الطريق إلى منزل الرسام، شاهد تغيراً جديداً في حياة البلدة في الليل لم يكن موجوداً من قبل. النوافذ مضاءة. الأصوات البشرية واضحة داخل البيوت. هذه الضجة دليل على عودة الحيوية لهذه الجدران المنطوية على من فيها كقضبان متينة.

قد يكون الأمر تقنية بشرية قديمة في التكيف مع العذاب والموت وليس تحسناً في الحياة. كانت رائحة العشب في منزل الرسام تملأ الشارع برائحة ندية عطرة وبدت هذه الرائحة ذكرى عريقة منسية.

تذكر كيف أن مشهد العصافير المشاكسة الضاجة في البرك المائية التي تحفرها القنابل في الخطوط الأمامية تبدو ساحرة ومثيرة لأن الحرب أو الكوارث تجعل أكثر المشاهد عادية في غاية الغرابة والدهشة والجمال بعد سيطرة قواعد الفجيعة.

قال الرسام:

ـ كيف الحال؟

ـ لا جديد وأنت؟

ـ عوملت في الجبهة كأسير.

سأل الراوي:

ـ لكن ما هي حكاية الجسر؟

ـ لوحة الجسر تقصد؟

ـ لا، محاولة نسف الجسر. هل هذا صحيح؟

أجاب الرسام بصوت خافت:

ـ هذا صحيح وخلال زيارة الدكتاتور إلى البلدة لكن المحاولة فشلت.

ـ لماذا؟

ـ آخر فحص للجسر تم قبل دقائق من عبوره. من تتوقع؟

**ـ لا أتوقع شيئاً.**

**قال الرسام:**

**ـ قيمة هذا الحادث في الغاية وليس في النتيجة فحسب. هل فهمت؟**

**ـ قد أكون فهمت وكنت أظن البلدة ميتة.**

**ـ هم أشاعوا هذا الوهم. كنت أريد أن أسألك سؤلاً؟**

**ـ تفضل.**

**ـ هل تعتقد ان هناك فرصة حقيقية لحركة مقاومة في هذه الظروف الصعبة؟**

**رائحة العشب في هذه اللحظة صارت أكثر قوة ونفاذا:**

**ـ قد نختلف في معنى المقاومة لأنها في نظري قائمة.**

**ـ كيف؟ سأل الرسام.**

ـ الرفض، الحكاية، الحذر، الحقد، الذكرى، الأمل، الشعر، الحب... الخ.

ونظر إلى لوحة الجسر عن قرب هذه المرة وسأل الرسام:

ـ متى فتح هذا الجسر؟

ـ في تموز 1973 كما أتذكر. هل رأيت زهور؟

ـ وتحدثت معها.

ـ هل اطلعتك على قائمة المختفيات؟

ـ بعض الأسماء وطلبت منها الحذر.

قال الرسام بخفوت يقترب من الهمس:

ـ وهذه قائمة أخرى. تفضل.

شرع الراوي في القراءة الصامتة:

ـ " نجية الشيخ حسين، البصرة، مُدرّسة، تاريخ الاختفاء 1979. سامية الإخشالي مع زوجها عبد الستار زبير، بغداد، تاريخ الاختفاء 5 حزيران 1980. سهيلة هويز مع زوجها ملاّ بكر فتح الله، سليمانية، تاريخ الاختفاء، شباط 1980. كوثر عبد الله مجيد، ديالى، مواليد 1955، تاريخ الاختفاء 15 حزيران 1980. ليلى يوسف، 55 سنة، البصرة، تاريخ الاختفاء 15 حزيران 1980. عائدة مطر ياسين، 53 سنة، البصرة، تاريخ الاختفاء 15 تموز 1980. رسمية جبر الوزني، كربلاء، تاريخ الاختفاء 1984".

لوحة على الحائط تمثل زقاق المختفين المعتم الطويل الرمادي الجدران مع فانوس من زمن قديم علامة على الزمن الضائع لكنه رأى مسند لوحة جديدة تحت العمل تمثل تابوتاً طويلاً أضخم

**من حجم المنازل تنسكب عليه شمس قوية ساطعة وجدار كُتب عليه بحبر غامض ودقيق: البلدة في 1987.**

**قال الرسام:**

**ـ تابوت لمرحلة.**

**على غير توقع سأل الراوي:**

**ـ هل وجدت نفسك في غرف المحكومين بالإعدام؟**

**ـ نعم وعشت فيها قبل هروبك من الحرب وعودتك. أسوأ ما فيها الإنتظار والغبش والرغبة المتأججة بالحياة والخوف.**

**لا ينسى الراوي مشهد الإعدام الجماعي في ثكنة عسكرية للتدريب بعد الخروج من السجن العسكري، عندما تم تجميع الجنود الهاربين سابقاً والعائدين، لمشاهدة حفل إعدام، بالإكراه، لعدد من الجنود المحكومين بالإعدام الذين نقلتهم سيارة خاصة إلى المكان في العشرين من كانون الأول 1986، ذلك الفجر**

الشتائي البارد على مقربة من صرخات النوارس قرب مسرح الموت وجسر الكوت التاريخي الذي كان يلوح في الضوء الفجري الراعش، من ميدان الرمي، كجسر في الضباب.

جاءت شاحنة نقل بيضاء كبيرة من سيارات نقل الموتى من المستشفى المعروفة في أيام الحرب وتوقفت قرب خشبات الموت وأُنزلت منها التوابيت على مرآى من الضحايا المربوطين على الأعمدة قبل التنفيذ لكي يرى المحكوم تابوته، حياً.

ـ هل تعتقد ان القتل على خشبة أكثر ذلاً وقسوة من القتل في ساحة حرب؟

أجاب الرسام وهو يرفع كأسه عن الطاولة المبقعة بالحبر والأصباغ والسجائر والشاي:

ـ نعم، أعتقد ذلك. الموت داخل الفخ يختلف عن الموت خارجه. لكنه موت.

ـ ما هي الميزة؟

ـ تجنب الذل. صار المحكوم بالإعدام هذه الأيام يدفع مكافأة، ساعته أو ما تبقى من نقود، للجلاد لكي يعجل بموته بلا عذاب.

قال الراوي وكان ينظر عبر النافذة إلى الليل:

ـ رأيت ذلك. بعض الضحايا يتوسلون القتل الفوري لأنهم لم يموتوا من الرشقات الأولى ويصرخون بمفرزة الرماية:

ـ "هنا في القلب، أرجوك".

قال الرسام:

ـ أنت لم تجب عن موضوع المقاومة. هل تخاف؟

ـ أجبتك.

قال الرسام بهمس راعش:

**ـ كن حذراً من إبن المشدوه.**

**ـ منذ سُحِق منير المهندس وإخوته تحت شاحنة السلطة عندما اكتشفوا انه هو الذي أوقف البث التلفزيوني خلال خطاب الدكتاتور في الليل، وأنا متوجس من المشدوه لأنه الوحيد العارف بسر الضحية. قد تمطر الليلة.**

**إقترب الرسام أكثر كما لو انه يخاف من الكراسي والحائط والطاولة واللوحة ليقول:**

**ـ كما انه يعرف بمن وشى بأبناء صاحب عربة الخردة الجوال واعدامهم.**

**ـ كيف عرف؟**

**ـ مؤتمن.**

**كان وجه الرسام ذابلاً وشاحباً شحوباً غريباً. ليس شحوب الموت بل الخوف الناجم عن خسارة كبيرة متوقعة أو اذلال في منتهى القسوة. قال الراوي قبل أن يغادر المنزل:**

**ـ آمل أن أراك مرة أخرى.**

**في الشارع، عندما استقبله الهواء البارد، تحت سماء ترتعش فيها النجوم، فكر في أن هناك أشياء كثيرة حية وباقية رغم كل شيء.**

# 46

( أخشى أن أموت،

وتموت كتب كثيرة في داخلي).

ـ كازنتزاكي.

*

عندما تحركت السيارة السوداء من مكان ما، كانت البلدة تئن تحت حرارة الصيف، ومثل حيوان مخيف أو كائن خرافي يزحف، كانت السيارة تجول في شوارعِ صامتة ومطلية بحرارة قيظ ساخن، وبدت بلا معالم.

كل شيء في حالة محو، البلدة والناس والوجوه والظلال والزمن، ولم تعد الأشياء تحمل علامة في نوعِ غريب من التلاشي والمحو والاختفاء.

في منعطف الحي العتيق، هاجم كلب ضخم شرس السيارة، وكان الكلب في هذا الجو الخانق والشوارع الخاوية كأنه الكائن الوحيد الحي الباقي في بلدة محرومة من النوم والهواء والحلم، كما لو أن البلدة في حالة احتضار، بعد ظهور نوع جديد من المذابح الجماعية لم يكن معروفاً في ذاكرة هذه الأجيال رغم بقايا رمادية معتمة في الظلام الداخلي والذاكرة والتاريخ.

قتلى المذابح الجماعية لا يقل عن قتل الحرب، وهذه السيارة السوداء المضببة الزجاج أو الوحش المتنقل هي الآلة الحديثة التي ستنقل الأرواح الخاطئة إلى الجحيم.

مرت السيارة بشوارع كثيرة. عبرت زقاق المختفين. عبرت شارع المعدومين. شارع القتلى. شارع الفارين. منعطف المشنوقين. فرع المشبوهين والسجناء القدماء، من دون أن يعرف الراوي أين ستتوقف، لا في النص ولا في الواقع.

كان أي منزل مرشحاً للمداهمة في هذه الساعات من قبل عربة الأباطرة المتنقلة كثعبان رملي زاحف. مرت من جوار جدار قديم متآكل كُتب عليه في حقب قديمة:(يسقط الإحتلال)، جدار يعود إلى الفترة الاستعمارية الانكليزية، في مطلع القرن العشرين، وكانت الحروف باهتة من المطر والريح والزمن.

هذا الجدار وقف، في كل الفصول، في مواجهة كل الجدران الأخرى بما في ذلك جدار جانيت في دولة المنظمة السرية.

في منعطف آخر في شارع منزل الراوي الذي كان يراقبها عبر ثقب في الحائط توقفت بلا ضجة ولا صرير.

هبط ثلاثة رجال بهدوء من يمارس عملاً مألوفاً وتركوا السيارة جاثمة كحيوان نائم وغابوا، فجأة، كما لو أنهم دخلوا في ثقب جدار.

**في مكان ما، بعيد، عوى كلب. كان الرجال قد انبثقوا من الظلام، ثانية، وهم يدفعون أمامهم كائناً يرتدي ثوباً شفافاً أبيض كأنه ملاك يبزغ من جدار في هذه الساعة الغامضة من الليل.**

**قبل أن يصعد الكائن الأبيض إلى السيارة، توقف، فجأة، ونظر إلى حائط الراوي. تلك كانت المرة الأخيرة التي رأى فيها زهور جبر الكاطع وهي تختفي نهائياً.**

**مرَّ كلب رمادي في الشارع الشاحب الفارغ المعتم وتوقف عند أحد الجدران ورفع إحدى قائمتيه الخلفيتين، وبال.**

***

**في المقـبرة الكـبرى، في فجـر صـيفي مشـرق، كـان سـكيران يتسليان بلعبة إعادة كتابة أسماء الموتى أو تواريخ الموت والميلاد، وعندما وصلا إلى قبر جبر الكاطع، هتف أحدهما، ضاحكاً:**

**ـ تعال شوف هذا: متى ولد ومتى مات؟**

**ـ ماذا ستكتب؟**

**خط الآخر على الشاهدة بصبغ أحمر:**

**ـ جبر من بطن أمه إلى باب القبر.**

2000